

مذكرات
بول غوغان
نوا نوا
23.6.2019
مذكرات تاهيتي
ترجمة: أبية حمزاوي

بول غوغان

نـــوا نـــوا

مذكرات تاهيتي

ترجمة: أبيـة حمزاوي



نـــوا نـــوا

مذكرات تاهيتي



Author: **Paul Gauguin**	اسم المؤلف: بول غوغان
Title: **NOA NOA - Tahiti Diary**	عنوان الكتاب: نـوا نـوا - مذكرات تاهيتي
Translate: **Abia Hamzawi**	ترجمة: أبيـة حمزاوي
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2018**	الطبعة الأولى: 2018



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

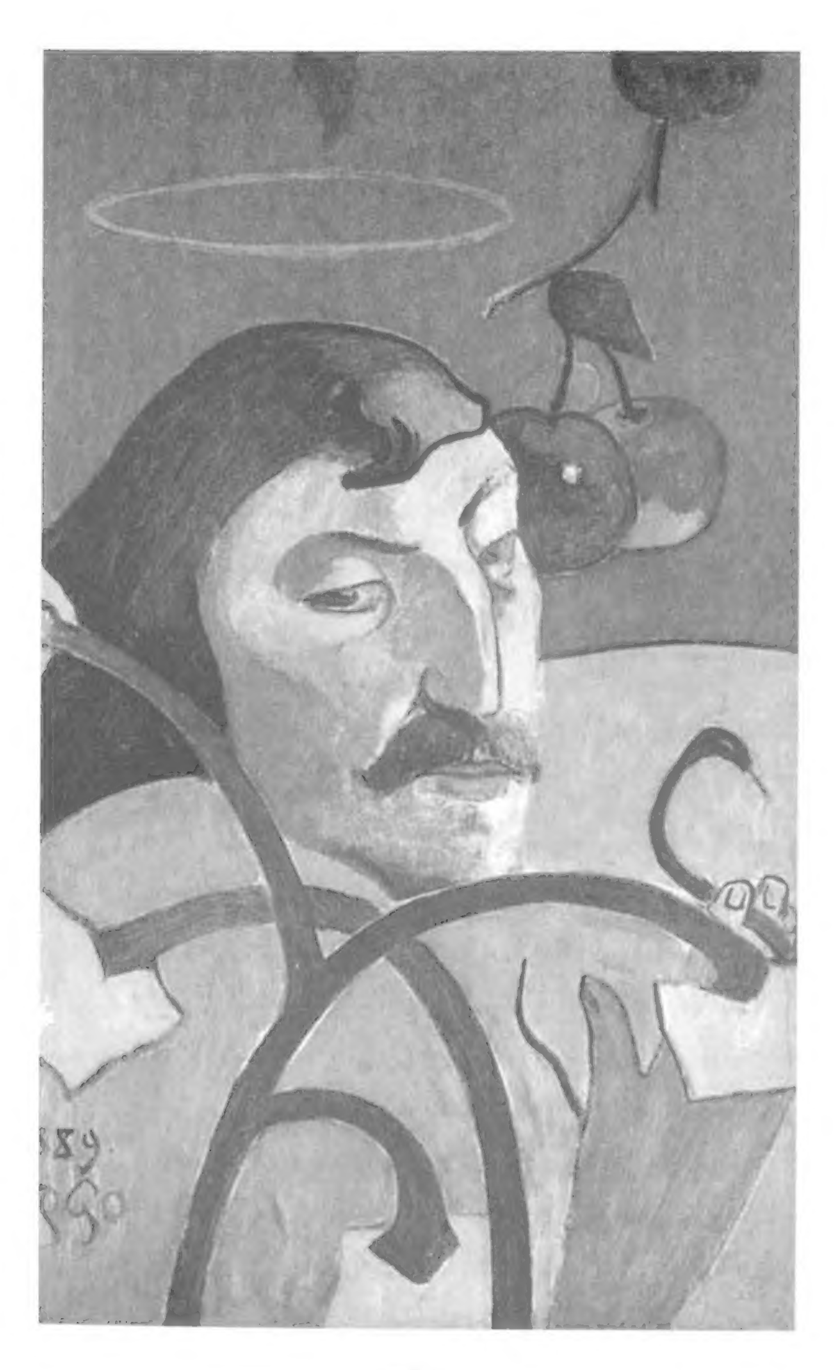
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289



قل لي ماذا رأيت؟
شارل بودلير

في ليلة الثامن من حزيران، وبعد ثلاثة وستين يوماً من السفر، ثلاثة وستين يوماً من التلهف والانتظار، لمحنا عن بعد ناراً غريبة تتماوج على صفحة الماء، ومن السماء أفلتت قمة بركانية ذات أثلام.

كنا قد تركنا موريا خلفنا متوجهين إلى تاهيتي.

لاح الفجر بعد بضع ساعات واقتربنا ببطء من رصيف الميناء، ودخلنا القناة ورسونا بسلام.

لم تقع أبصارنا في البداية على أي شيء خاص، كان الخليج عادياً لا يقارن بخليج ريو دي جانيرو مثلاً.

لم يكن هناك ما يسترعي الانتباه سوى قمة جبل غرق فيما مضى بمياه الفيضانات ولم يبق منه إلا تلك القمة طافية في الماء، هاجرت إليها عائلة، استوطنتها وأسست فيها سلالة جديدة، تسلق المرجان محيطاً بهذه القمة وشكل مع مرور الزمن أرضا جديدة لا تزال تتوسع وتكبر متفردة، أصيلة، منعزلة، يصونها امتداد المحيط واتساعه.

بدأت مهمتي في الساعة العاشرة بزيارة الحاكم المحلي، ولأنني أحد أعضاء البعثة الفرنسية، استقبلني كما لو كنت شخصية هامة، لا أدري لِمَ منحتني الحكومة الفرنسية ثقتها وضمتني إلى بعثتها هذه، صحيحٌ أنها كانت بعثة فنية ولكن هذه الكلمة لم تكن تعني بالنسبة

للسكان المحليين سوى مرادف لكلمة تجسس، حاولت أن أكسب ثقتهم وثقة رجالهم ولكن دون فائدة، وعندما أخبرتهم بأنني لا أجني أي ربح من مصاحبتي هذه البعثة لم يصدقوني، وتحولت حياتي في بابيتي إلى عبء ثقيل.

كنت أرى أمامي أوروبا التي هربت منها معتقداً بأنني قد خلفتها ورائي إلى الأبد، ففي ظل التأثيرات الطاغية للطبقة الأوروبية المستعمرة ساد التقليد الفج الذي يصل حد المهزلة، وتشويه العادات والتقليعات ومختلف مظاهر الحضارة الأوروبية.

وهل قطعت كل هذه المسافات لأجد أمامي الشيء ذاته الذي دفعني للهروب؟

حدث واحد أثار اهتمامي، مرض الملك «بوماري» الذي بات موته متوقعاً في أية لحظة، اكتسبت المدينة تدريجياً شكلاً خاصاً، فبينما كان جميع من فيها من أوروبيين وتجار وموظفين وضباط وجنود يواصلون حياتهم العادية، يضحكون ويغنون ويمرحون في الطرقات والأماكن العامة، انتشر سكان المدينة حول القصر يتحدثون همساً مكتئبين.

في المرفأ انتشرت أشرعة برتقالية فوق سطح الماء الأزرق تتلألأ فضية تحت الشمس، كان سكان الجزر المجاورة يسرعون ليشهدوا اللحظات الأخيرة من حياة ملكهم الذي سيستولي الفرنسيون على مملكته بعد وفاته.

شاركتهم السماء في حزنهم وغطت الجبال بقع قاتمة ساعة الغروب كعادتها كلما أشرف ملك على الموت، مات الملك وسجي جثمانه في القصر بعد أن ألبسوه زياً عسكرياً.

هناك رأيت الملكة «مارو» تزين البهو الملكي بالزهور وبعض

المعدات، عندما سألني مدير الأعمال العامة رأيي في الترتيبات الفنية للجنازة، أشرت عليه بالاعتماد على الملكة، فالحس الجمالي العفوي لعِرقها يجعلها تنشر الرقة، وتحول كل شيء تلمسه إلى عمل فني.

حينما التقيتها أول مرة لم أفهمها، كنت مصاباً بخيبة أمل، كل شيء اختلف عما كنت أمني النفس به، ومشمئزاً من تلك الابتذالات الأوروبية، لم تكن إقامتي كافية بعد لأتبيّن مدى الأصالة والنقاء العرقي والجمال البدائي الذي لا يزال كامناً وراء ذلك المظهر المصطنع والمزيف الذي اكتسبه هذا الشعب بتأثير الغزو الأوروبي.

كنت ما أزال عاجزاً عن رؤية الحقيقة، ووجدت في تلك الملكة، التي كانت امرأة ناضجة، مجرد امرأة عادية تحمل آثار جمال نبيل، إلا أنني تراجعت عن رأيي هذا عندما رأيتها للمرة الثانية.

سحرني حسنها الماووري، ملامحها التاهيتية الصافية، ذكرى سلفها الزعيم الكبير «تاتي» تمنحها وجميع أفراد عائلتها مظهر عظمة ووقار حقيقيين، كان لوجهها جمال منحوتة متقنة، رقيق وعريض في آن واحد، ساعداها كعمودي معبد بسيطين ومستقيمين، وشكل جسدها، خط الكتفين الأفقي، الطول الفارع الذي يستدق في الأعلى، كل هذا يذكر بالثالوث المقدس، وإذا نظرت إلى عينيها تجدهما تطلقان فجأة بريق عاطفة كامنة مبهمة تهب الحياة لكل شيء حولها، ربما هكذا انبثقت الجزيرة في أحد الأيام، وانطلق شعاع الشمس الأول يمنح الحياة ويحول النباتات إلى أزهار نُفخت فيها الروح.....

ارتدى جميع التاهيتيين ثياب الحداد السوداء، وظلوا يغنون الترانيم الجنائزية يومين وينتحبون، وبدا لي أنني أستمع إلى سوناتا «الباتيتك» لبيتهوفن، ثم جاء يوم الجنازة.

تحرك الموكب من القصر في الساعة العاشرة، وضع الأوروبيون قبعاتهم البيضاء وبزاتهم السوداء، بينما ارتدى التاهيتيون ثياب الحداد التقليدي.

سار الجميع بصمت ونظام، ورفع قائد كل مجموعة علماً فرنسياً.

توقف الموكب في «اروبي» حيث انتصب صرح يصعب وصفه، كتلة ليس لها شكل محدد، ترتصف حجارتها بطبقة من الإسمنت وتشكل تنافراً مؤلماً مع التكوين الطبيعي للبيئة المحيطة.

بدأ «لاكاكساد» بالقاء خطبة تقليدية ترجمت إلى الفرنسية، ثم قدم رجل دين بروتستانتي دعاء ردده شقيق زوجة المتوفى، وانتهت المراسم وغادر الناس المكان.

في طريق العودة، وبعد أيام من الحزن والغم، استعاد الناس مرحهم وأمسكت النساء «الفاهينا» بأيدي الرجال « التاني» وشرعوا يتجاذبون أطراف الحديث بحيوية، النساء تموج أردافهن، وأقدام الرجال العارية تضرب الأرض بقوة مثيرة للغبار، اجتمعوا قرب نهر «فاتو»، لاذت الفتيات خلف الصخور، رفعن ثيابهن حتى الخصر وخضن في الماء يبردن أعطافهن وسيقانهن بعد إرهاق المسير في حرارة الشمس، عدن إلى «بابيتي» منتعشات، نظيفات، نهودهن الفتية الناهضة تغطيها عقود الأزهـار وتنتصب تحتها الحلمات الدقيقة.

لهن وداعة وليونة حيوان صغير قوي معافى، تفوح منهن رائحة حيوانية ونباتية، وعطر دمائهن، وأريج الغاردينيا التي تزين شعرهن، وهن يهزجن:

«تيني ميراهي نوا نوا»

– الآن نفوح شذى –

... دخلت الأميرة غرفتي وكنت مضطجعاً شبه مريض، أضع على جسدي «باريو»[1] وأي ثوب لاستقبال امرأة نبيلة كهذه.

قالت: «يا اورانا» أحييكم غوغان، وأنتم تعانون المرض وأنا جئت لرعايتكم .

«وما اسمك؟»

«فاييتوا»

كانت «فاييتوا» أميرة حقيقية، هذا إذا كان لا يزال هناك شيء حقيقي في هذه البلاد التي طبع الفرنسيون كل شيء فيها بطابعهم.

جاءت بثياب سوداء، حافية، وزهرة عطرة خلف الأذن.

مازالت في حداد على خالها الملك «بوماري»، أما أبوها، وعلي الرغم من احتكاكه بالأوروبيين من موظفين وجنود، ومشاركته في حفلات الاستقبال التي تقام في منزل الأميرال فقد بقي بعيداً عن التأثيرات الأوروبية، ولم يرغب يوماً في أن يكون سوى سليل ملوك الماووري.

كان عنيفاً حين يغضب، صاخباً حين يلهو في سهرات الأصدقاء، واشتهر بحبه للخمر واللهو وانغماسه في المرح، كان قد توفي منذ فترة وجيزة ويقال بأن ابنته ورثت عنه الكثير من طباعه.

نظرت إلى الأميرة التي هبطت علي وأنا في غطرسة الأوروبي الذي حط مؤخراً على أرض بلادها بقبعته البيضاء، وارتسمت على وجهي ابتسامة شك.

رغبت في أن أكون مهذباً فبادرتها بالكلام: لطف منك أن تأتي، هلا شربنا كأساً معاً؟ وأشرت بيدي إلى زجاجة كنت قد اشتريتها للتو

١- الثوب المحلي للرجال.

ووضعتها في ركن الغرفة، لم تبد الأميرة رفضاً أو حماساً وتوجهت إلى حيث أشرت وانحنت لتأتي بالزجاجة، بحركتها هذه انحسر ثوبها بلطف عن جسدها، جسد يحمل الكون فيه، إنها حتماً أميرة وتنحدر من سلالة شهمة أبية، رأسها الوحشي القوي يعلو كتفين عريضين، في البداية لم أر فيها سوى فكي «آكلي لحوم البشر»، الأسنان جاهزة لتنهش، والنظرة مترصدة كحيوان ماكر مفترس، وجدتها قبيحة جداً على الرغم من جبهتها الجميلة التي تعلوها مسحة نبل.

تمنيت ألا يخطر ببالها أن تجلس على سريري، كان مجرد قطعة أثاث بالية لا يمكن أن تحملنا كلينا.

ولكن هذا ما فعلته بالضبط.

صر السرير إلا أنه لم يتهاو.

تبادلنا الكلمات ونحن نتناول الشراب، ولم يدر بيننا حديث حار، ثم ران الصمت على الغرفة.

نظرت إلى الأميرة خلسة فرأيتها ترمقني بطرف عينيها، مر الوقت وأفرغنا زجاجة الشراب، وكانت «فاييتوا» بارعة في احتساء الخمرة.

لفت سيجارة تاهيتية وتمددت على السرير لتدخنها، قدمها تداعب القضبان بحركة رتيبة دائمة، أصبحت تعبيراتها أرق، والتمعت عيناها، وندت عنها تنهيدة هاربة من شفتيها، وتهيأ لي أنني أمام قطة تخرخر وجسدها يستمتع بإحساس لذيذ ما.

وبما أنني شخص متقلب المزاج فقد وجدتها الآن جميلة، وأربكتني بشدة عندما قالت لي بصوت مرتجف: «أنت لطيف»، لقد كانت الأميرة ممتعة بحق، بدأت تروي لي من حكايات لافونتين، «الصرصار والنملة» معتقدة بأن هذا يرضيني، حكاية من بقايا ذكريات طفولتها في مدارس البعثات التبشيرية، وانطفأت لفافتها.

«هل تعلم يا غوغان، أنا لا أحب لافونتينكم هذا» .
«ماذا؟ لافونتيننا الطيب».
«ربما كان طيباً، ولكن حكمته قبيحة، «النمل ....»
وندت عنها حركة تعبر عن عدم الرضى، «أما الصرصار فلا بأس به لأنه يغني، ودائماً يغني،»
وأضافت بكل ترفع وهي ترنو إلى الأفق البعيد:
«ما كان أجمل مملكتنا قبل أن نبيع أشياء منها ! كان الناس يغنون طوال العام، عندما تغني دائماً يعني أنك قادر على العطاء دائماً،» ثم تركتني.
وضعت رأسي على الوسادة تداعبني صورة وجهها ووقع كلماتها وهي تقول «يا أورانا غوغان» «أنت لطيف يا غوغان».
ارتبطت هذه الحادثة بموت الملك «بوماري» وأثرت في نفسي بشكل فاق تأثير موت الملك والمراسم التي أقيمت له.
سرعان ما نسي التاهيتييون المحليون والأوروبيون موت الملك.
عاد سكان الجزر المجاورة من حيث جاؤوا، وانتشرت الأشرعة البرتقالية ثانية فوق سطح الماء، واستعادت الحياة شكلها المعهود.
لم تزد المسألة عن فقدان ملك.
وباختفائه اختفت آخر مظاهر التقاليد القديمة، وأغلق تاريخ الماووري، المدينة انتصرت للأسف! جنود، تجار، وضباط، تملكني حزن عميق، لقد حطم الواقع الحلم الذي دفعني إلى تاهيتي، حطمه بقسوة.
أحببت تاهيتي القديمة، أما تاهيتي اليوم، فتملؤني خوفاً.
ولكن جمال هذا العرق أقنعني بأن العظمة والعراقة التي يتمتع بها لا يمكن أن تختفي بهذه البساطة، العادات الطبيعية العفوية، المعتقدات

المتأصلة، الحكايات والأساطير الشعبية، لا بد أن هذا لا يزال كامناً في مكان ما، ولكن كيف لي أن أعثر على آثار الماضي وحدي؟ كيف لي أن أهتدي إليه دون دليل؟ كيف أعيد شعلة النار إلى رماد مبعثر؟

ليس من عادتي أن أستسلم أمام الصعوبات التي تعترضني دون أن أخوض كافة الاحتمالات لحالها، وحتى أشدها صعوبة.

اتخذت قراري بسرعة، سأترك «بابيتي» وأنسحب من هذا المركز الأوروبي، أدركت بأنني إذا عشت مع التاهيتيين في تجمعاتهم البعيدة سأتمكن من اكتساب ثقتهم والتعرف إليهم عن قرب دونما جهد كبير.

في صباح أحد الأيام ركبت عربة تركها لي أحد الضباط وذهبت أبحث عن سكن جديد، رافقتني «تيتي»، دماؤها نصف انكليزية ونصف تاهيتية وتتكلم الفرنسية بطلاقة، لبست أجمل ثيابها ووضعت «التياريه» خلف الأذن، قبعتها من القش زينتها بشريط ملون وأزهار وصدفات برتقالية، وانسدل شعرها على كتفيها، كانت فخورة بأن تركب عربة معتزة بأناقتها الشديدة وبكونها محظية رجل تعتقد بأنه مهم وثري، كانت حسناء ولم يكن هناك أي شيء يدعو للسخرية من اعتزازها هذا، فالاعتزاز والكبرياء شيم متأصلة وطبيعية في هذا العرق تعكس ذكرى تاريخهم العريق وانتمائهم النبيل.

أعرف جيداً بأن مفهوم الحب عندها يختلف تماماً عنه عند الباريسية.

فهي بالنسبة للباريسيين مجرد بنت هوى، أما بالنسبة للماووري فعاطفة المحظية شيء مختلف تماماً، نعم مختلف تماماً، النار التي تستعر في داخلها تطالبك بمزيد من الحب لتغذيها فتزفره عطراً قاتلاً، تلك العيون وهذا الفم أرى أنها عاجزة عن الكذب، وكل شيء فيها ينطق بالحب، ولا شيء سوى الحب.

سرعان ما انتهت الرحلة، لم نتبادل سوى كلمات قليلة عابرة، بلاد غنية ورتيبة، البحر عن يميننا، والرصيف المرجاني وصفحة الماء يتحولان إلى رذاذ وهما يتكسران على الصخور بقوة، وعن يسارنا الغابة الموحشة.

عند الظهيرة كنا قد قطعنا خمسة وأربعين كيلو متراً ووصلنا إلى منطقة «ماتايا»، بحثت فيها إلى أن وجدت كوخاً ملائماً كان صاحبه يبني كوخاً آخر بجانبه لسكناه.

مساء اليوم التالي عندما عدنا إلى «بابيتي» سألتني «تيتي» ما إذا كنت أرغب في اصطحابها معي، أجبتها: «في ما بعد حين أستقر».

عرف عن «تيتي» أنها أودت بحياة العديد من عشاقها، ولكن هذا لم يدفعني للاستغناء عنها، ربما دماؤها المختلطة كانت السبب، فعلى الرغم من وجود آثار عميقة للماووري فيها إلا أن صلاتها المتعددة أفقدتها الكثير من الصفات الأصيلة المتميزة وشعرت بأنها غير قادرة على منحي أية معرفة أو شيء جديد يهبني تلك السعادة التي أبحث عنها.

وقلت لنفسي ربما سأجد ضالتي هناك، وينبغي على أن أقوم باختيار دقيق.

على أحد الجانبين يقع البحر، وعلى الجانب الآخر الجبل، جبل ذو فج عميق وانكسار هائل تغطيه أشجار المانغا العملاقة النامية بين الصخور، بين الجبل والبحر يقع كوخي المصنوع من خشب «البوارو» وإلى جانب الكوخ الرئيسي هناك آخر ثانوي لتناول الطعام.

الصباح

على حافة الشاطئ رأيت قارباً مصنوعاً من تجويف جذع شجرة، تجلس فيه امرأة نصف عارية، على الرمال يقف رجل نصف عار أيضاً، إلى جانبه تتمدد شجرة جوز الهند المريضة ذات أوراق ذابلة تشبه ببغاء ذهبي الذنب معلقاً رجليه نحو الأعلى ورأسه يميل نحو الأسفل ويمسك في منقاره عنقوداً من ثمار جوز الهند، رفع الرجل فأسه الثقيل بحركة متناسقة فترك في السماء انطباعاً أزرق وعلى الجذع الميت ثلماً وردياً بعث فيه الحياة إثر لحظة توق أطلقت الحرارة المختزنة فيه يوماً بعد يوم عبر سنين طويلة.

وعلى التراب البنفسجي ذكرتني الأوراق ثعبانية الشكل ذات اللون الأصفر المعدني بكتابات شرقية سرية قديمة، كلمات «تتاغانا» الذي حكم جميع بلاد الانديز وقدس الاله «آتوا»، وحضرتني كلمات الحكيم كحوار سري تنسجم مع ما أنا فيه من الوحدة والفقر الجميل:

«في عيون تتاغانا أروع الملوك، ووزراؤهم ليسوا سوى تراب ولعاب، في عينيه النقاء واللانقاء يتراقصان كالأفراس الستة، في عينيه البحث عن بوذا كالبحث عن الزهور».

في القارب كانت المرأة تنظم شباك الصيد.

يعترض خط البحر الأزرق بين الفينة والأخرى ارتطام زبد الموج بالصخور المرجانية.

المساء

ذهبت لأدخن لفافة عند شاطئ البحر.

الشمس تختبئ وراء الأفق مسرعة، وها هي الآن خلف جزيرة «موريا» إلى يميني، تباين الأضواء جعل الجبال تبدو حادة منتصبة سوداء كقلاع حربية تواجه السماء البنفسجية.

لا عجب أنني كنت مسحوراً بتأثير هذه الروعة الهندسية الطبيعية، في الأفق اتخذت القمة شكل خوذة عملاقة ذات عرف، الأمواج تتدافع حولها صاخبة كحشد هائل يحاول عبثاً أن يطولها، وهي تجاور السماء وتقف وحيدة تشهد كل هذا أو ربما تحرسه، شعرت بنظرة سرية خفية تنطلق من قمة الجبل نحو المياه التي احتوت هذا العرق الآثم، ومنِ الصدع الواسع الذي ربما كان فما، انبعثت ابتسامة، الليل يهبط سريعاً، «موريا» تنام.

صمت! أنا أتعلم التعرف على صمت الليل التاهيتي.

في هذا السكون لا أسمع سوى ضربات قلبي، شعاع القمر يداعب قصب الخيزران المنتصب قرب كوخي ويتسلل إلى سريري، هذه الأضواء المتناسقة تذكرني بآلة موسيقية، ناي الأقدمين الذي أسماه الماووري الفيفو، القمر وقصب الخيزران دفعا خيالي بعيداً، موسيقى سحرية نمت صامتة في داخلي خلال النهار، يأتي الليل وشعاع القمر ليوقظاها فتعود إلى الذاكرة الحالمة بألحان حبيبة، وأغفو معها.

لا يفصلني عن السماء سوى السقف الهش من أوراق الكاذي حيث تعشش العظاءة، أين مني سجون المنازل الأوروبية.

كوخ الماووري لا يفصلك عن الحياة، أو الكون، أو عن اللا متناهي المطلق، ومع ذلك كنت أعاني من وحدة شديدة، كنت وسكان المنطقة نراقب كل منا الآخر، وبقيت المسافة بيننا بعيدة، نفذت مؤونتي في اليوم التالي، ما العمل؟ ظننت بأنني سأتمكن بما لدي من نقود من الحصول على كل ما هو ضروري للعيش هنا، ولكن خاب ظني، فما أن تصبح خارج حدود المدينة لن تجد سوى الطبيعة لتحافظ على وجودك، إنها سخية وغنية لا ترفض طلباً لسائل، تمنحه كنوزها وأشجارها وجبالها وبحرها دون أن تنضب، وما على المرء إلا أن يجيد تسلق شجرة عالية أو خوض مجاهل الجبال كي يعود مثقلا بغنائم ثمينة، عليه أن يتعلم كيف يلتقط الأسماك

وكيف يغوص في الماء ويقتلع الصدف العالق بصخور القاع، على المرء أن يعرف ذلك، وأن يكون قادراً على القيام به، ها أنذا رجل الحضارة والمدينة أشعر بدونيتي تجاه عالم المتوحشين هذا، وأني أحسدهم، أنظر إلى حياتهم السعيدة الآمنة وهم لا يبذلون أي جهد مستفيض لتأمين احتياجاتهم اليومية، ولا يهتمون على الإطلاق بشيء اسمه النقود، لمن يبيعون سلعهم ما دامت الطبيعة بمتناول الجميع؟.

أجلس على عتبة كوخي، معدتي خاوية، أرثي لحالي، وأتساءل عما يخبئه لي القدر، لعل الطبيعة وضعت عوائق لا يمكن تجاوزها أمام هؤلاء المتمدنين كي تحمي نفسها من أذاهم، فجأة سمعت أحد التاهيتيين يناديني وهو يومئ لي، حركاته المعبرة كانت كافية لتشرح قصده، وفهمت بأنه كان يحاول دعوتي لتناول الطعام معهم، إلا أنني رفضت بحركة من رأسي، ثم دخلت كوخي خجلاً، ربما لأنهم أشفقوا علي وقدموا لي حسنة ورفضتها.

بعد دقائق تركت فتاة صغيرة بعض الخضار المطهوة أمام بابي، وإلى جانبها فاكهة ملفوفة بدقة بورقة خضراء ندية، كنت جائعاً وقبلت الطعام بصمت، مر الرجل بعد قليل أمام كوخي وابتسم لي وقال وهو يتابع مسيره: «باييا» وحدست أنها تعني «أمسرور أنت؟» كانت هذه الحادثة بداية تفاهم متبادل بيني وبين المتوحشين.

«متوحشون»!! كانت هذه الكلمة تخرج تلقائياً من شفتي حين أنظر إلى تلك الكائنات السوداء وأسنانها الشبيهة بأسنان آكلي لحوم البشر، ولكني الآن أرى أصالتهم ووسامتهم الغريبة، لا زلت أذكر الرأس البني الصغير والعيون الثابتة الهادئة تنظر إلي من خلف ورقة نباتية ضخمة في صباح أحد الأيام دون أن أنتبه إليها، وما أن لمحتها حتى اختفت.

وكما كنت بالنسبة إليهم كانوا بالنسبة إليّ موضوعاً للمراقبة وإثارة الدهشة والتعجب، كنت أبسّط طرق تعاملي معهم، كما كان كل واحد منهم إنساناً متوحشاً في نظري كذلك كنت متوحشاً في نظر كل منهم.

من منا كان على خطأ؟

حاولت أن أعمل، رسمت كافة أنواع الرسومات السريعة، ودونت جميع الملاحظات الممكنة.

ولكن الطبيعة بعنفها وألوانها النقية أغشت بصري وأربكتني ....

كنت مصاباً بالشك، وكنت أبحث وأبحث .....

ورغم هذا كان رسم الأشياء كما أراها أمراً بسيطاً للغاية، أن أضع دون حسابات معقدة الأحمر قرب الأزرق، لقد سحرتني الأشكال الذهبية عند الجداول وعلى شاطئ البحر، ولكن لماذا ترددت في وضع عظمة الشمس على قماش الرسم؟ إنها التقاليد الأوروبية العريقة!! الخوف والخجل من التعبير عن شعوب متدنية.

كي أعتاد الملامح الخاصة للوجه التاهيتي تمنيت طويلاً أن أرسم وجه إحدى جاراتي وكانت امرأة تاهيتية شابة.

ذات يوم استجمعت المرأة الجرأة الكافية ودخلت كوخي وبدأت تنظر إلى لوحات كنت قد علقتها على أحد الجدران، نظرت إلى لوحة «اوليمبيا» وتمعنت فيها لفترة طويلة وباهتمام خاص.

سألتها: «ما رأيك فيها؟» وكنت قد تعلمت بعض الكلمات التاهيتية خلال الشهرين المنصرمين اللذين توقفت فيهما عن التحدث بالفرنسية.

فأجابت جارتي: «إنها جميلة جداً».

ابتسمت لهذه الملاحظة التي أثرت بي، ألديها إذن إحساس بالجمال؟ ترى أي تعليق كان سيتكرم به أساتذة كلية الفنون الجميلة على هذه الملاحظة؟

وفجأة وبعد صمت يسبق التوصل إلى نتيجة ما، أضافت: «هل هي زوجتك؟»

« نعم»

لم أتردد في الكذب عليها، أنا «تاني» اوليمبيا الجميلة!

أسرعت برسمها دون أن أشعرها بينما كانت تتفحص بفضول بعض اللوحات الإيطالية الدينية القديمة، رأت ما أفعله فصرخت باستياء حاد «آييتا» لا، وهربت.

بعد حوالي الساعة، عادت إلي وقد لبست ثوباً جميلاً ووضعت زهرة خلف الأذن، هل كان رفضها الأول مجرد دلال؟ أم أنها المتعة في أن تقبل بالشيء حسب رغبتها الخاصة؟ أم أنها ببساطة الرغبة في معرفة المجهول؟ أو ربما كانت مجرد نزوة، نزوة خالصة من النوع الذي يستسلم له الماووري بسهولة.

بدأت العمل فوراً، دون تردد، بحرارة وحماسة شديدين، كنت مدركاً بأن سيطرتي عليها كموديل تعتمد على مهارتي كمصور، تماماً كما كنت مدركاً بأن الموضوع بالنسبة إليها هو بمثابة دعوة مغرية لا تقاوم.

لم تكن حسناء حسب مفاهيمنا الجمالية التقليدية.

ولكنها كانت جميلة للغاية.

تمتزج خطوطها وانحناءاتها بانسجام رفائيلي، فمها صنعه نحات ماهر عرف كيف يرسمه في خط واحد متحرك يختلط فيه الفرح كله مع العذاب كله.

عملت بسرعة وهوس فقد كنت مدركاً بأن إذعانها لم يكن كليا، ارتعشت وأنا أقرأ في تلك العينين الواسعتين الخوف والرغبة في معرفة المجهول، حزن التجربة المرة التي تكمن في جذور كل متعة، الشعور العفوي المكتمل بكونها سيدة نفسها، مثل هذه المخلوقات توهمنا بأنها تخضع لنا حين تمنح نفسها، ولكنها في الواقع تخضع لنفسها فقط، تكمن فيها قوة تفوق قوة البشر العادية - فيها شيء حيواني مقدس.

أعمل الآن بحرية أكبر، وبشكل أفضل.

ولكن عزلتي ما زالت تؤرقني.

في الواقع، كنت محاطاً بالعديد من الشابات والفتيات ذوات العيون التاهيتية النقية، الهادئة الرائعة، وبعضهن كن على استعداد لمشاركتي حياتي، إلا أنني لم أجرؤ على الاقتراب منهن، لقد أربكتني الثقة في نظراتهن، والكبرياء في مشيتهن، والاعتزاز في تمايلهن.

كل شيء حولهن يوحي لك بأنه جاهز لأن يؤخذ، وبشكل مجازي، أن يؤخذ بعنف ودون أية كلمة، كل شيء فيه توق خفي للعنف، للقوة،

وذلك الإسهام الذكوري في السيطرة يترك إرادة المرأة حرة من أية مسؤولية فهي بهذه الطريقة لم تذعن للبدء في حب دائم، من الممكن أن يكون هناك معنى أعمق لهذا العنف الذي يبدو للوهلة الأولى مستهجناً، ومن المحتمل أيضاً أن فيه نوعاً من السحر الوحشي، كذلك كنت محاطاً بفتيات مصابات بمرض ينقل عدواه الأوروبيون، ويمثل المراحل الأولى من انخراطهن في ركب المدينة.

عندما أشار كبار السن إلى أحداهن قائلين «ماوو تيرا» «خذ هذه» لم أملك الجرأة ولا الثقة لأقبل بها.

أرسلت إلى «تيتي» أعلمها بأنني سأكون سعيداً بأن نلتقي ثانية، وجاءت على الفور.

لكن التجربة باءت بالفشل، وكنت أقيس التطور الحقيقي في حياة المتوحشين الجميلة بالملل الذي كان يستولي علي في صحبة هذه المرأة.

بعد بضعة أسابيع افترقنا أنا و«تيتي» للأبد.

وعدت وحيداً ثانية.

جيراني أصبحوا أصدقائي، لبست الثياب التي يلبسونها، وتناولت الطعام الذي يتناولونه، وأمضيت أوقات راحتي معهم أشاركهم في استجمامهم وكسلهم واستمتاعهم الذي قد تعترضه أحياناً لحظات جد.

في المساء كانوا يتحلقون مجموعات قرب حافة دغل تعلوه رؤوس أشجار جوز الهند الشعثاء، رجالاً ونساء، شيوخاً وأطفالاً.

بعضهم من «تاهيتي» وآخرون من «تونغا»، والبعض الآخر من «ماركيزاس»، تكوين أجسادهم القاسي يشكل تناسقاً ممتعاً مع رقة أوراق النبات المخملية، ومن صدورهم النحاسية تخرج ألحان

مرتعشة ترتد على جذوع أشجار جوز الهند وتنتشر، إنها الأغنيات التاهيتية التي تدعى «ايمينيه» .

تبدأ امرأة بالغناء، يرتفع صوتها كطيران عصفور، ويزداد حدة حتى يصل إلى نهاية السلم الموسيقي، ثم وبتموجات قوية يعود إلى الانخفاض والارتفاع وأخيراً يحلق في الجو بينما تبدأ أصوات النساء الأخريات بالارتفاع وتطير أغنيتهن لتلحق بالأولى وتلازمها، وأخيراً يشترك الرجال بصوت أجش وصرخة وحشية ويختمون الأغنية بصوت قوي منسجم.

أحياناً كان الاجتماع يتم في الكوخ العام للغناء أو لمناقشة أمر ما، يبدؤون دائماً بتلاوة صلاة يرددها رجل مسن ويلحق به الآخرون يتابعون كلماته كلازمة، بعد الصلاة يغنون أو يروون القصص الطريفة، يرتلون أغنياتهم بصوت خافت جداً، وأكثر ما يسلي في الأمر هو التفاصيل التي يبتكرونها للقصة المغناة والتي تكسب الجو حيوية وإثارة ساذجة.

نادراً ما كانوا يناقشون أموراً جدية، أو يقدمون اقتراحات حكيمة.

في إحدى الأمسيات دار بينهم الحديث التالي:

قال رجل عجوز: «في قريتنا يرى المرء منازل تتعرض للانهيار هنا وهناك، وجدران تتآكل، وسقوفاً تدلف منها مياه الأمطار حين تنهمر، وتكاد تتهاوى، لماذا؟ كل إنسان في هذا العالم له الحق بمأوى، لا ينقصنا الخشب، ولا أوراق النباتات، لنضع سقوفاً جديدة، أقترح على الجميع أن نعمل سوية لنبني أكواخاً واسعة ومتينة بدل تلك التي أصبحت غير صالحة للسكن، دعونا نقدم المساعدة، كل منا بدوره».

صفق الحاضرون دون استثناء أو اعترض، لقد قال قولاً حسناً، وتبنى الجميع رغبة واقتراح الرجل العجوز.

قلت لنفسي وأنا عائد إلى البيت في ذلك المساء: «إنهم حكماء وعقلاء»، عندما ذهبت في اليوم التالي أسأل عما إذا كانوا قد بدؤوا بتنفيذ ما قرروا القيام به مساء أمس، تبين لي بأن الموضوع قد نسي تماماً وبأن حياتهم اليومية العادية قد اتخذت مجراها الطبيعي المعهود، وبقي الكوخ الذي تحدث عنه الرجل العجوز مهدماً دون إصلاح، وحين سألتهم عن الموضوع أجابوني بابتسامة مراوغة متملصة، فتقطيب الحاجبين على تلك الجباه الحالمة يرسم خطوطاً صريحة التعبير.

وتراجعت متحيراً، يتملكني أحساس بأنني تعلمت درساً هاماً من هؤلاء المتوحشين، ولا شك بأنهم أحسنوا حين صفقوا للرجل العجوز، ولعلهم أيضاً أحسنوا حين أهملوا اقتراحه.

لماذا العمل؟ الآلهة تمنحهم وتسخو عليهم بعطاءاتها الطيبة.

الغد؟

ربما!

ومهما حصل غداً فإن الشمس ستشرق كما أشرقت اليوم رحيمة خيّرة هادئة، أهو الإهمال، الطيش، أم تقلب المزاج؟ أم أنه أكثر الفلسفات عمقاً وحكمة؟ واحذر الترف أو الوصول إلى تذوقه والاعتياد عليه بحجة تأمين حياة الغد....

فكل يوم في الحياة هو أفضل من سابقه.

أصبحت أفهم لغة الماووري بشكل جيد الآن ولن يطول بي الوقت حتى أتحدث بها دونما صعوبة.

ثلاثة من جيراني القريبين، وآخرون هنا وهناك كانوا يتولون العناية بي كواحد منهم.

مع الاحتكاك المستمر بالحصى والاعتياد على ملمس الأرض

اكتسبت قدماي طبقة قاسية، جسدي العاري معظم النهار ما عاد يعاني من أشعة الشمس، فالمدنية صارت تسقط عني شيئاً فشيئاً.

بدأت أفكر بطريقة أبسط، وتبدد شعوري بالكراهية نحو جيراني، بل إنني بدأت أحبهم.

كل متع الحياة الحرة - الإنسانية منها والحيوانية –س في متناول يدي، أبتعد عن كل شيء مصطنع تقليدي أو مبتذل وأدخل في الحقيقة، في الطبيعة.

هبط السلام إلى قلبي، الأيام القادمة ستكون كلها جميلة حرة كهذا اليوم، لن أشغل نفسي بعد اليوم بأمور تافهة، أتطور بشكل عفوي طبيعي.

أصبح لي صديق

إنه أحد جيراني، شاب بسيط جداً وجميل جداً، جاء في أحد الأيام لزيارتي، من المؤكد أنه لم يأت بدافع من حب الذات بل لأن منحوتاتي ولوحاتي الملونة أثارت فضوله، كان يأتي إلي يومياً ليراقبني وأنا أرسم أو أنحت أو أحفر، وكانت أجوبتي عن أسئلته تعلمه الكثير.

حتى الآن وبعد مضي زمن طويل، لا زلت أجد متعة خاصة في تذكر انفعالاته الصادقة والحقيقية، وطبيعته الصادقة والحقيقية كذلك.

في المساء حين أرتاح من العمل كان يأتي إلى لنتحدث، يطرح أسئلته كأي شاب بدائي، أسئلة عديدة حول الحياة الأوروبية، وخاصة حول أمور الحب، وكثيراً ما كانت تربكني.

ولكن أجوبته كانت أكثر سذاجة حتى من أسئلته.

ذات يوم وضعت في يده أدواتي وقطعة خشب، رغبت منه أن يجرب الحفر، نظر إلي مرتبكاً وحائراً في البداية ثم أعاد ما قدمته وأخبرني بعفوية وإخلاص تأمين بأنني إنسان مفيد للآخرين.

أعتقد أن «توتيفا» هو أول من استخدم التعبير، لغته لغة متوحش أو طفل، فمن يعتقد بأن الفنان يمكن أن يكون إنساناً مفيداً لابد وأن يكون متوحشاً أو طفلاً، احتجت مرة خشباً من نوع خاص لأقوم ببعض أعمال الحفر عليه، جذعاً كبيراً وقاسياً فاستشرت «توتيفا» في الأمر وأخبرني بوجوب ذهابنا إلى الجبال للحصول عليه، وبأنه يعرف منطقة غنية بأشجار جميلة من هذا النوع سيقودني إليها إذا رغبت بذلك وسنقطع الشجرة التي تعجبني ونحملها إلى هنا.

بدأنا رحلتنا في الصباح الباكر، المسالك الجبلية في تاهيتي وعرة وصعبة على الأوروبي، والذهاب إلى الجبال يتطلب حتى من أهل البلد درجة عالية من الجهد لا يبذلونه إلا عند الضرورة القصوى.

بين جبلين، جدارين بازلتيين شاهقين، يستحيل تسلقهما، يفتح فجّ فمه لتتسرب منه المياه إلى الصخور التي انفصلت عن خاصرة الجبل وتدحرجت لتشكل مهداً لينبوع، نما الينبوع وصار غديراً اقتحمها ودفعها بعيداً عنه، وعندما تحول الغدير إلى نهر استعادها وحملها حتى البحر، إلى جانب النهر الذي يلتقيه شلال بين حين وآخر يسير ممر يقود إلى متاهة من الأشجار، وشجر الخبز شجر خشب الحديد، الخبازى، الباندانوس، الجوافة، والسرخس العملاق، نباتات مجنونة تنمو بوحشية متزايدة تتشابك أكثر وأكثر حتى تتحول إلى دغل يستحيل عبوره.

تعرينا ولففنا البايرو الأزرق والأبيض حول خصرينا، والبلطة في أيدينا، بعد مررو وقت يصعب تحديده، عبرنا الجدول كي نسلك طريقاً مختصرة، وبدا دليلي وكأنه يقتفي أثر الطريق مستعيناً بحاسة الشم وليس بالنظر، فالأرض كانت مغطاة تماماً بخليط مذهل من أوراق وأزهار.

الصمت مطلق إلا من خرير المياه الحزينة بين الصخور.

تهسهس رقيقة ناعمة كشكوى رتيبة حتى أنك تخالها مجرد مرافقة موسيقية لما حولك.

في هذه الغابة، هذه العزلة، هذا الصمت، كنا نحن الاثنين، هو شاب فتي وأنا، رجل يقترب من الشيخوخة، أفلتت من روحه أوهام كثيرة، وكلٌ جسده تحت وطأة الجهد والعمل، يحمل الإرث الطويل القاتل لرذائل مجتمع مشوه خلقياً وجسدياً.

لجسده ليونة حيوان، ولدانة رجل الغابة، سبقني بعدة خطوات، وبدا لي بأنني أرى أمامي كل النباتات الحية الرائعة تختلط وتحيَا وتتجسد فيه، منها إليه، ومن خلاله ينطلق ويتحرر عبير جمال ساحق.

أكان هذا الذي يسير أمامي إنساناً؟ هل هو ذلك الصديق الساذج الذي جذبني إليه مزيج بساطته وتعقيده؟ ألا يمثل هنا أمامي الغابة بحد ذاتها، الغابة الحية، لا جنس لها، ومع ذلك تغويك؟

في البيئة التي يعتاد فيها الناس العري كما عند الحيوان، يكون الاختلاف بين الجنسين أقل وضوحاً عما هو عليه في بيئتنا، فبفضل الأحزمة والمشدات نجحنا في جعل المرأة كائناً مشوهاً، وهي نفسها تشذ عن قوانين الوراثة الطبيعية وتساعدنا في تعقيدها والوصول بها إلى حدود التوتر، نبقيها باهتمام بالغ في حالة الضعف العصبي والدونية الجسدية وحين نحاول تجنيبها التعب فإننا نحرمها من إمكانيات النمو السليم، ونفقد بفضل هذه الطبيعة المكتسبة من الرشاقة والمثل العليا كل شيء مشترك بيننا وبينها، ولا يحدث هذا طبعاً دون عواقب سيئة على نمو مجتمعنا وأخلاقنا.

في تاهيتي يمنح النسيم الآتي من البحر والغابة القوة للرئة، فتتسع وتنمو الأكتاف عريضة، رجالهم ونساؤهم يتعرضون لأشعة الشمس

ويدوسون الحصى والرمل، يشتركون معاً في أداء الأعباء والواجبات بنفس الحيوية أو ربما بنفس الكسل والتراخي، لدى النساء شيء ذكرى، ولدى الرجال شيء أنثوي.

هذا التقارب بين الجنسين جعل علاقاتهم سهلة، حالة التعري الطبيعية الدائمة أبعدت أذهانهم عن مشاغل خطيرة حول مسألة «الغموض» التي تولد توتراً شديداً لدى الشعوب المتمدنة بحيث تقود إلى مفهوم «الحادثة السعيدة»، وألوان الحب السري والسادي، واكتسب سلوكهم وحركاتهم وعاداتهم براءة طبيعية، نقاء كاملاً، الرجال والنساء رفاق وأصدقاء أكثر منهم عشاقاً يسكنون معاً باستمرار يتشاركون في الأفراح والأتراح، وحتى أن مفهوم الخطيئة غير معروف عندهم، وعلى الرغم من كل هذا التقليل من الفروق بين الجنسين، لماذا راودت نفس إنسان ينتمي إلى حضارة عريقة أفكار مروعة؟ ولماذا كان ذلك وسط نشوة يهبها سحر الضوء وعبير الجديد والغامض والمجهول؟

اخترقت الحمى جسدي وارتجفت ركبتاي.

ولكننا كنا قد وصلنا إلى نهاية ممر.

ولكي يخبرني أن علينا اجتياز الجدول، استدار نحوي ليواجهني، تلاشى الرجل التاهيتي، وعاد مجرد شاب يسير أمامي، له عيون هادئة صافية صفاء الماء العذب.

هبط السلام إلى قلبي ثانية.

توقفنا لحظة نسترد أنفاسنا وحين غمرت جسمي في مياه الجدول الباردة شعرت بفرح لا حدود له، فرح الروح أكثر منه فرح الجسد والحواس.

«تويو تويو» إنها باردة قال «تويتفا»

فأجبته: «لا، لا».

وبدت لي هذه الكلمة نتيجة طبيعية ومناسبة جداً للصراع الذي خضته للتو مع ذاتي ضد فساد حضارة بأكملها، صراع روح واجهت الخيار بين الحقيقة واللا حقيقة، صراع أيقظ ضجيج الغابة، وقلت لنفسي لقد رأتني الطبيعة أحارب ذاتي، فهمتني، وسمعتني، وأجابت بصوتها الواضح على صرخة نصري وأرادت بعد هذه المحنة أن تستقبلني كأحد أبنائها.

تابعنا مسيرنا، وانغمست بجدة ولهف في وحشية الغابة، أتوق إلى النفاذ إلى صميم هذه الطبيعة القوية والحنونة، وأمتزج مع عناصرها الحية.

بخطوات ثابتة وعيون هادئة وقلب خال من الشكوك تابع رفيقي سيره بينما كنت أنا وحدي أحمل عبء ضمير شيطاني.

وصلنا إلى غايتنا.

اتسعت حواف الجبل الشاهقة، وامتد سفحه وراء ستار نباتي شديد الكثافة، كان «تويتفا» يعرف المكان جيداً، فقادني إلى الأشجار التي أبحث عنها بثقة تامة.

عشرات من أشجار الورد تتفرع أغصانها باتساع، انتقينا أفضلها وبدأنا نضربها بفؤوسنا، كان علينا أن نضحي بالشجرة كلها للحصول على جذع مناسب، ضربت فأسي بحيوية وسال الدم من يدي لشدة انفعالي، كان فرحي هائلاً وأنا أرضي نزعة وحشية مقدسة لم أعهدها قبلاً، لم تكن الشجرة هي ما أضرب، لم تكن هي ما أريد التغلب عليه، ومع هذا ما لبثت أن سمعت صوت ارتطام الجذع على الأرض وبدأ فأسي يضرب جذعاً آخر.

وبدا لي بأنه يردد مع إيقاع ضرباته:

اضرب عميقاً حتى الجذور في الغابة كلها
حطم غابة الشر.
التي نثرت بذورها يوماً بداخلك
مع أنفاس الموت
حطم كل حب للذات فيك
حطم الشر ومزقه، ففي الخريف سنقطع زهرة اللوتس بيدنا.

نعم، حطمها كلها، انتهت، ماتت الحضارة القديمة بداخلي، لقد ولدت من جديد أو بالأحرى ولد بداخلي إنسان آخر أنقى وأصلب من الأول.

هذا الهجوم الوحشي كان الوداع الأخير للمدينة، للشر، لحواس فاسدة تغفو في أعماق كل روح منحدرة، تنتهك بساطة الحياة السليمة، البساطة التي خطوت نحوها بشعور غامر بالسعادة، في هذه التجربة التي خضتها مع ذاتي انتصرت الإرادة والقوة.

وتنشقت نقاء الضوء الرائع بشراهة، لقد أصبحت إنساناً جديداً.

من الآن فصاعداً أنا متوحش حقيقي، «ماووري حقيقي»، عدت مع «توتيفا» إلى «ماتيا» نحمل شجرتنا بحذر وسلام.

«نوا نوا» لم تكن الشمس قد غربت بعد، كنت منهكاً حين وصلنا إلى الكوخ.

«بايا» قال «توتيفا»

«نعم» أجبته.

ومن صميم القلب رددت هذه «النعم» لنفسي.

لم أقطع يوماً هذا الجذع بسكيني إلا وتنفست في كل مرة عبير النصر وتجديد الحياة «نوا نوا»

يمكن الوصول عبر وادي «برنارو» إلى سفح جبل «تامانو» عن

طريق فج يقسم تاهيتي إلى قسمين، من هناك ترى قمتي «أورفينا» و«أروراي» اللتين تشكلان مركز الجزيرة.

كثيراً ما حدثوني عن ذلك المكان، وعن الأعاجيب والسحر فيه، عزمت الذهاب لقضاء بضعة أيام وحدي هناك، ووضعت مخططاً لذلك.

«ولكن ما الذي ستفعله في الليل؟»

«ستعذبك التوبوباوس».

«ليس من الحكمة بشيء أن تزعج أرواح الجبل».

«لابد وأنك مجنون».

ربما كنت مجنوناً، ولكن قلق أصدقائي التاهيتيين زاد من رغبتي وفضولي للقيام بالرحلة.

بدأت رحلتي إلى «اروراي» قبل فجر أحد الأيام.

تبعت ممراً جبلياً على حافة نهر «بوناري» لمدة ساعتين، ووجدت نفسي بعدها مجبراً على عبور النهر، فعلى جانبيه كان الجدار الجبلي يقف منتصباً بانحدار شديد يميل أحياناً ليشكل بروزاً فوق النهر، تحمله دعائم من كتل صخرية هائلة، أخيراً اضطررت إلى متابعة سيري وسط النهر وكانت المياه تصل أحياناً حتى ركبتي وأحيانا حتى كتفي.

شعاع الشمس ينفذ بصعوبة من خلال الجدارين اللذين برزا من أسفل مذهلي الارتفاع وشديدي القرب من القمة، وفي وضح النهار استطعت تمييز النجوم خلف زرقة السماء اللامعة.

حوالي الساعة الخامسة اقترب النهار من نهايته وبدأت أبحث عن مكان أمضي الليل فيه، وانتبهت إلى وجود فسحة مناسبة مغطاة بالسراخس والموز البري والبواروس، وعثرت لحسن حظي على بضعة أقراط موز ناضجة، أشعلت ناراً، ووضعتها عليها وكانت

وجبتي ثمار الموز المشوية، ثم استلقيت لأنال قسطاً من الراحة عند جذع شجرة ذات أغصان منخفضة علقت عليها أوراق الموز الضخمة لتحميني إن أمطرت السماء.

كان البرد شديداً، وسببت لي ثيابي المبتلة رعشة ازدادت أكثر وأكثر، لم أنم جيداً.

لكني كنت أعرف بأن الفجر لن يتأخر كثيراً وأنه ما من شيء أخافه هنا إنساناً أو حيواناً، ففي تاهيتي لا وجود للزواحف أو لآكلي لحوم البشر، و «اللعبة المتوحشة» الوحيدة التي قد أتعرض لها هي أن تحك الخنازير البرية أنفها بقدمي، هذا أكثر ما كنت أخشاه فأبقيت فأسي مربوطاً إلى رسغي، كان الظلام دامساً، يستحيل على المرء تمييز أي شيء فيه، ولم يحيرني سوى رماد فُوسفوري انتشر قرب رأسي.

وابتسمت تذكرت قصص «الماووري» عن «التوبوباوس» الأرواح الشريرة التي تستيقظ في الظلام لتقلق راحة النيام في مملكتهم، وسط الجبال، التي تحيطها الغابات وتظللها بظلال أبدية، «التوبوباوس» التي تزداد حشودها يوماً بعد يوم بانضمام أرواح الموتى إليها.

ويلٌ لمن يجد نفسه في مكان تسكنه تلك الأرواح ....

وأنا كانت لدي هذه الجرأة.

وأحلامي كذلك، كانت تزيد من قلقي وتثير اضطرابي.

عرفت فيما بعد بأن ذلك البريق كان عبارة عن نوع خاص من الفطور التي تنمو على الأغصان الميتة كالتي استعملتها لأشعل النار.

في باكورة اليوم التالي تابعت رحلتي، غدا النهر أكثر انتظاماً، وتحول إلى جدول غزير متدفق ثم إلى شلال، كان يجري بنزوات غريبة وأحياناً يبدو كما لو كان يقفل عائداً حول ذاته، كنت أضيع طريقي باستمرار وأحياناً اضطر إلى التقدم متنقلاً من غصن إلى غصن

تحملني يداي بينما لا تكاد قدماي تمسان الأرض، من قاع المياه نظرت إلي سمكة غريبة كأنها تقول: «ما الذي تفعله هنا؟» واتجه نحوي انقليس مخضرم، وبالتفاتة مفاجئة لمحت فتاة عارية تقف على صخرة ناتئة تمد يدها تحتضن الحجر أو تستند إليه محاولة أن تشرب من ينبوع ينحدر بصمت من علو شاهق بين الصخور، بعد أن روت ظمأها استندت إلى صخرة ثانية ضامة يدها على حفنة ماء، أفلتتها فتساقطت بين ثدييها، ثم خفضت رأسها كظبي وجل أنذرته غريزته بوجود خطر ما، وحدقت نحو الدغل حيث كنت أقف بلا حراك، لم تلتق نظراتنا ولكنها ولت وهي تصرخ غاضبة «تايهابي» .

نظرت فوراً إلى النهر - لا أحد - فقط انقليسة ضخمة تتحرك بين حجارة القاع الصغيرة.

لم أصل إلى قمة «اروراي» دون صعوبة، تلك القمة التي تشكل رأس الجزيرة، جاء المساء، وبدأ القمر ينشر ظلاله وغمر ملامح الجبل المتجهمة برقة، وحضرتني أسطورة «باراو هينا تيفاتو»، هينا قالت لتيفاتو، أسطورة قديمة تحب الفتيات الصغيرات سردها وهن مجتمعات مساء، جرت أحداث الأسطورة حسب الرواية في نفس المكان الذي أجلس فيه الآن.

وتهيأ لي بأنني أرى مشاهدها تجري أمامي.

يلوح رأس إله جبار في الأفق، إله رأسه كرؤوس الأبطال، وأنعمت عليه الطبيعة وعياً لقوته وإدراكاً لمدى جبروته وروعته، وجه عملاق رائع يطل في أبعد خط للأفق على عتبة العالم، تلمس امرأة قوية وذكية شعر الإله وتقول له: «ليبعث الإنسان بعد مماته».

فتتحرك شفاه الإله رحيمة صارمة لتجيب:

«على الإنسان أن يموت».

بدأت أعاني قلقاً تغلغل في داخلي وأثّر على حماسي للعمل، صحيح أنني كنت أفتقد وجود كثير من الأدوات الضرورية، وآلمني أن يتحول الأمر إلى عجز كامل أمام المشاريع الفنية التي كرست نفسي لها، ولكن الفرح كان أشد ما أفتقد.

مضت شهور على افتراقي عن تيتي، ولم أعد أسمع تلك الثرثرة الطفولية المتناغمة التي كانت تتدفق من فم محظيتي والتي كانت تدور دائماً حول نفس الأشياء والموضوعات، دائماً كانت تطرح الأسئلة ذاتها، ودائماً كنت أجيبها بالقصص ذاتها.

هذا الصمت لا يناسبني.

قررت المغادرة لأبدأ رحلة الجزيرة دون أن أحدد أي هدف لها.

بينما كنت أحزم أمتعتي وبعض الأشياء التي قد أحتاجها وأرتب غرفتي، كان جاري وصديقي «آناني» صاحب الكوخ الذي أسكنه يقف محدقاً يراقبني بعيون قلقة، وبعد تردد طويل وقيامه بحركات تنم عن الأقدام والإحجام قرر الكلام وسألني ما إذا كنت سأتركهم.

«لا، أنا ذاهب في رحلة لبضعة أيام وسأعود».

ولكنه لم يصدقني، وبدأ يبكي.

جاءت زوجته وأخذت تخبرني بأنها تحبني وبأن النقود غير ضرورية كي يعيش الإنسان بينهم، وأنه يوماً ما، إذا ما رغبت بذلك، فسيكون مثواي الأخير هناك وأشارت إلى مقبرة تقع على تلة قريبة تزينها الأشجار.

فجأة غمرتني رغبة في أن أرتاح هناك للأبد، على الأقل لن يزعجني أحد في رقادي الأزلي هناك.

أضافت زوجة «آناني» : أنتم الأوروبيون غريبو الأطوار، تأتون،

وتعدون بالبقاء، وحين نحبكم تغادرون، وتقولون بأنكم ستعودون، ولكنكم لا تعودون أبداً.

«ولكن أقسم بأنني سأعود هذه المرة، أما فيما بعد فلا أدري»، وفي النهاية تركاني أذهب.

انحرفت عن الطريق المحاذي لشاطئ البحر وسرت في ممر ضيق يقود إلى دغل كثيف داخل الجبال، ووصلت بعد بضع ساعات إلى سهل يعيش سكانه حياة الماووري البدائية القديمة.

إنهم سعداء، لا شيء يقلق راحتهم، يحلمون، يحبون، ينامون، يغنون، يصلون، ويبدو أن المسيحية لم تصل بعد إلى ذلك المكان، فأمامي تنتصب تماثيل آلهتهم التي كانت قد اختفت منذ زمن بعيد في أمكنة أخرى- تماثيل هينا آلهة القمر والاحتفالات تقام حوله.

تبلغ مقاييس التمثال الحجري ثلاثة أمتار من الكتف إلى الكتف، واثني عشر متراً من القدم حتى الرأس، تعلو التمثال قلنسوة من حجارة حمراء، يرقص الناس حوله حسب طقوس قديمة «ماتامووا» بينما تنتقل ألحان آلتهم الموسيقية «الفيفو» من الخفيف المرح إلى الحزين القاتم حسب ما يقتضيه مزاج اللحظة، وتابعت طريقي.

في «تارافاو» المنطقة التي تقع إلى الطرف الآخر من الجزيرة، أعارني جندي حصانه وطفت على ظهره الشاطئ الشرقي الذي لا يرتاده إلا القليل من الأوروبيين عادة.

في «فاوني» وهي منطقة صغيرة تلي في الأهمية منطقة «ايتيا»، سمعت صوتاً يناديني: «مرحبا أيها الرجل الذي يصور بشراً»- إنه يعرف أنني رسام -» تعال وشاركنا طعامنا».

تلك هي تعابير الحفاوة في تاهيتي.

والدعوة لا تحتمل الرفض، فالابتسامة التي ترافقها تمنعك من التردد في قبولها وتحيطك بالود.

ترجلت عن حصاني، أخذه مضيفي وربطه إلى جذع شجرة ببساطة وبراعة ودون أي أثر للدونية في تصرفاته.

دخلنا كوخاً يجلس فيه الرجال والنساء يدخنون ويتحدثون، حولهم الأطفال يهذرون ويمرحون.

«إلى أين أنت ذاهب؟» سألتني امرأة ماوورية تناهز الأربعين.

إلى «ايتيبا»

«ولماذا ؟»

لا أدري كيف مرت الفكرة برأسي، ربما كانت التعبير الحقيقي عن السبب الذي يكمن وراء رحلتي هذه.

«لأجد زوجة» أجبتها.

«هناك الكثير من النساء الجميلات في «فاووني» هل تريد واحدة؟»

«نعم»

«حسناً إذا أعجبتك فسأعطيها لك، إنها ابنتي».

«هل هي شابة؟»

«نعم»

«وجميلة؟»

«نعم»

«صحتها جيدة؟»

«نعم»

«حسناً اذهبي واحضريها»

وذهبت المرأة لتعود بعد ربع ساعة تم تحضير الطعام أثناءها، وكان من الموز البري، والأصداف البحرية، عادت تتبعها فتاة شابة تحمل

منديلاً في يدها، وعبر ثوبها الشفاف لمحت بشرة كتفيها الذهبية، وبرعمين منتفخين ينتصبان فوق صدرها، كانت طفلة كبيرة، هيفاء، قوية، وتتمتع بمقاييس رائعة التناسق، ولوجهها ملامح لم أعهدها في أي وجه آخر في هذه الجزيرة، حتى شعرها كان مختلفاً، كثيفاً كدغل، ومجعداً بعض الشيء، وحين تسقط أشعة الشمس عليه تحوله إلى جيشان كثيف.

أخبروني بأن أصلها من «التتغا»

ألقيت عليها التحية، فابتسمت وجلست قربي.

«ألست خائفة مني؟»

«ايبتا: لا»

«هل ترغبين العيش معي في كوخي؟»

«ايبتا: لا»

كان هذا كل شيء.

خفق قلبي بينما كانت الفتاة الشابة ترتب الطعام فوق ورقة موز كبيرة وتقدمه لي، أكلت بشهية، إلا أنني كنت مضطرباً مشوش الذهن، سحرتني هذه الطفلة ذات الثلاثة عشر ربيعاً (أو ما يقارب الثمانية عشر في أوروبا) جعلتني أشعر بالخجل، وأخافتني، ما الذي يجري داخلها؟ وكنت أنا المسن متردداً في توقيع صفقة تعود فيها كل الامتيازات لي، ولكنني أنجزت الصفقة وتمت الأمور بسرعة، فكرت بيني وبين نفسي، ربما قبلت بي تحت ضغط أمها، أو ربما قام الكبار بترتيب كل شيء فيما بينهم دون استشارتها...

واستعدت الثقة حين لمست في حركات الفتاة وسلوكها نوعاً من الاستقلالية والكبرياء وهي صفات خاصة وواضحة في هذا العرق.

ازدادت ثقتي وترسخت حين رأيت في تصرفاتها ذلك التعبير

الرزين لشابة تجيد التفكير والتصرف، ولكن الظل الساخر المرسوم على فمها الشهواني الرقيق نبهني إلى أن الخطر الحقيقي في هذه المغامرة سيكون من نصيبي لا من نصيبها.

لا يمكنني أن أنكر بأن قلبي كان مثقلاً ومفعماً بقلق وأسى غريبين حين كنت أجتاز عتبة كوخهم.

حانت ساعة الذهاب، امتطيت صهوة جوادي، تبعتني الفتاة وأردفتها ورائي ترافقنا أمها ورجل وامرأتان أخريان هما خالتاها حسبما قالته لي.

عدنا إلى «تارافاو» التي تبعد تسعة كيلو مترات عن «فاوني» وبعد أن قطعنا كيلو متراً واحداً قالت لي: «توقف هنا».

نزلت عن حصاني ودخلنا كوخاً كبيراً شديد النظافة والترتيب، يوحي بالترف، ترف الأرض، تمتد فيه بسط جميلة من القش ويسكنه رجل وامرأة هادئان ورقيقان.

جلست عروسي إلى جانب المرأة وقدمتها لي:

«هذه أمي»

وبصمت ووجل تامين صب أحدهم ماء عذباً في إناء شربنا منه جميعاً كل بدوره كما لو كنا نمارس طقساً دينياً خاصاً.

بعد ذلك قالت لي المرأة التي دعتها عروسي بأمها وهي تنظر إلي بعينين مليئتين بالدموع:

«هل أنت إنسان طيب؟»

أجبت بصعوبة بعد أن فحصت ضميري:

«آمل ذلك»

«هل ستجعل ابنتي سعيدة»

«أجل»

«يجب أن تعود إلينا بعد ثمانية أيام، وإذا لم تكن سعيدة ستتركك».

ووافقت بحركة من رأسي، ثم خيم الصمت.

أخيراً ذهبنا، امتطيت حصاني ثانية والوفد يرافقني.

في الطريق التقينا أشخاصاً عديدين تعرفوا علينا، العائلة الجديدة، وقدموا لنا التهاني وهم يقولون للفتاة:

«هل أنت الآن حقاً فاهينا محظية رجل فرنسي؟ كوني سعيدة».

شيء واحد حيرني في كل هذا، كيف حدث أن لـ «تهوره»، وهو اسم زوجتي، أمّان؟

وسألت المرأة التي قدمت لي تهوره:

«لماذا ادعيت بأنك أمها؟ لماذا كذبت؟»

أجابت:

«لم أكذب، المرأة الأخرى هي أيضاً أم تهوره، إنها أمها بالإرضاع».

في «تارافاو» أعدت الحصان إلى صاحبه، وهناك حدث شيء مزعج للغاية، قالت لي زوجته الفرنسية بطريقة تعوزها اللباقة:

«ماذا؟ أتحضر معك مثل هذه الفاجرة؟»

وبعينين ثائرتين عرّت الفتاة التي قابلت هذه الإهانة بلا مبالاة تامة، تأملت لحظة المغزى الذي ينطوي عليه المشهد، على الطرف الأول الحقيقة والطبيعة المتفتحة النضرة، وعلى الطرف الأخر عقم القانون والتزييف، عرقان يقفان وجهاً لوجه، وأنا أقف خجلاً من انتمائي، آلمني أن أرى مدى هزالته، انتماء مهزوز عسير على الفهم، والتفت سريعاً إلى الطرف الآخر لأشعر بالدفء والفرح يأتيان من بهجة ذلك الضياء الذهبي الحي الذي وقعت في حبه لتوي.

تركتنا العائلة المرافقة في «تارافاو» عند بائع الخردوات الذي يحتوي دكانه كل شيء، فاكهة مشروبات، أسلحة، رجال ونساء وحيوانات.

ركبت وزوجتي عربة قادتنا إلى «ماتيبيا» التي تبعد الآن خمساً وعشرين كيلو متراً.

زوجتي تجيد الصمت، مليئة بالحبور والحزن، وأهم من هذا كله تميل بالفطرة للتهكم.

لم نتوقف عن دراسة أحدنا للآخر، ولكنها بقيت عصية على فهمي وكنت المهزوم في هذه المعركة.

عاهدت نفسي أن أراقب تصرفاتي وأن أبقى سيد نفسي، وبذلك أصبحت مراقباً قوياً لكن قوتي وتصميمي هزما وتحولت لكتاب مفتوح أماما تهوره.

عانيت من الفجوة العميقة التي تفصل بين روح من المحيط وروح لاتينية بشكل عام وفرنسية بشكل خاص.

إن روح الماووري لا تفصح عن نفسها بسهولة، والإمساك بطرف الخيط لفهمها يتطلب الكثير من الدراسة والصبر، وحتى عندما تعتقد بأنك فهمتها من أعمق أعماقها، تفاجئك وتربكك بقفزات غير متوقعة، إنها معضلة أو سلسلة من المعضلات، في اللحظة التي تظن بأنك أمسكت بها تجدها بعيدة عنك لا يمكن الوصول إليها أو التواصل معها، مغلفة بالضحك والعبث والتبدل وتعدد الوجوه، تتقرب إليك بكامل إرادتها لتنسل منك بمجرد أن تند عنك بادرة شك أو عدم يقين، وعندما تحيرك معالمها الواضحة التي تلجأ إلى حقيقتها الدفينة، تنظر إليك باطمئنان هادئ ينبع من أعماق ابتسامتها الدائمة وقلبها المرح.

من جهتي، أوقفت في الحال هذه الجهود الواعية التي أفسدت علي متعة الحياة، وتركت نفسي أعيش ببساطة، منتظراً بكل ثقة أن تتكشف الأمور مع الوقت، مر أسبوع، تملكني فيه شعور طفولي لم أختبره سابقاً، أحببت تهوره وبحت لها بحبي، فأخذت تضحك، كانت تدرك ذلك جيداً.

وبدا لي أنها أحبتني بالمقابل، إلا أنها لم تفصح عن ذلك، ولكن، وفي بعض الليالي كان البرق يرسم على جسدها وبشرتها الذهبية انحناءات،،،، في اليوم الثامن شعرت كما لو أننا ندخل الكوخ للمرة الأولى - سألتني تهوره السماح لها بزيارة أمها في «فاوني»، وكنت قد وعدتها بذلك منذ البداية، أذعنت بحزن لرغبتها، ربطت بضعة قطع نقدية في منديلها لتغطي نفقات الرحلة ولتشتري لأبيها مشروباً، وأوصلتها إلى محطة العربات.

تملكني شعور بأنه وداع لا لقاء بعده.

كانت الأيام التي تلت مليئة بالعذاب، قادتني وحدتي إلى خارج الكوخ بينما أرجعتني الذكريات إليه، كنت عاجزاً عن تركيز أفكاري على أية دراسة....

مر أسبوع آخر، وعادت تهوره.

وبدأنا حياة مليئة بالسعادة، كان الفرح والحماس للعمل يشرقان في داخلي مع شروق الشمس يشعان مثلها، وغمر وجه تهوره الذهبي مسكننا وكل ما فيه بالحبور والنور، توقفت عن دراستي، وتوقفت عن دراستها، توقفت عن إخفاء حبها، وتوقفت عن التحدث عن حبي لها، عشنا ببساطة تامة، ما أروع أن تبحث عن الانتعاش في الصباح الباكر عند جدول قريب، كما فعل آدم وحواء في فردوسهما.

الفردوس التاهيتي، «نافي نافي فينوا» - أرض المتعة!

وأصبحت حواء هذه الجنة أكثر وأكثر رقة، وحبها أكبر، اخترقني سحر عبيرها نوا نوا.

دخلت تهوره حياتي في الوقت المناسب تماماً، لو عرفتها قبلاً لعجزت عن فهمها، وبعد هذا لكان الوقت متأخراً جداً، اليوم أفهم مدى حبي لها، ومن خلالها أتعرف على عالم من الغموض والسحر كان غائباً عني تماماً، لم أكن أفهمها بعقلي إنما بحسي وعاطفتي، وكل ما تمنحني إياه أو تقوله لي يستحوذ على أحاسيسي وعواطفي، ويوماً ما، فيما بعد، سأكون قادراً على تحليل وفهم الوضع الذي أنا فيه الآن.

بأحاديثنا اليومية قادتني إلى الفهم الكامل لشعبها أكثر من أية تجربة أخرى، لم أعد أميز الأيام من الساعات، أو الصالح من الطالح، تكون السعادة أحياناً قوية جداً لدرجة أنها تطغى على أسبابها، كل ما أعرفه هو أن كل شيء كان جيداً لأن كل شيء كان جميلاً.

لم تكن تهوره تزعجني أبداً أثناء عملي، وبذكائها الفطري كانت تدرك متى تتحدث ومتى تصمت دون أن تقاطعني، تحدثنا عن أوروبا وعن تاهيتي، عن الله وعن الآلهة، كنت أستفسر منها، وكانت تنهال بأسئلتها علي.

توجب علي الذهاب إلى «بابيتي» لمدة يوم.

وعدتها أن أعود في المساء، لكن العربة التي أخذتها تركتني في منتصف الطريق فتابعت سيراً على الأقدام، وصلت في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، عندما فتحت الباب رأيت، وغاص قلبي لما رأيت، كان النور قد انطفأ، ولم أفاجأ بذلك فالوقود كان على وشك النفاذ وشراؤه كان أحد أسباب رحلتي، إنما انتابني شعور مفاجئ أخافني واستولى علي، خفت من التوقع والشك ومن إحساس بأنه استباق لشيء سيحدث، حتماً لقد طار العصفور ...

وبسرعة أشعلت عود ثقاب ورأيت ....

تهوره، جامدة في مكانها، عارية تماماً، مستلقية على بطنها هلعة وعيناها متسعتان بشكل غير عادي، نظرت إلي، وبدا لي بأنها لم تعرفني، أما أنا فقد وقفت للحظات غير واع تماماً، وانتقلت عدوى الخوف منها إلي، وتهيأ لي بأن شعاعاً فوسفورياً ينطلق من عينيها المحدقتين، لم أرها من قبل جميلة هكذا، جميلة لدرجة هائلة، ثم في هذا الجو من نصف العتمة والمزدحم بالنسبة لها بالرؤى والخيالات المرعبة، توخيت ألا أقوم بحركة قد تزيد من فزعها، هل أستطيع أن أعرف كيف بدوت لهذه الطفلة في تلك اللحظة؟ ألا يمكن أن تعتبرني بوجهي المذعور كأحد الشياطين أو التوباباوس الذين يسرقون النوم من ضحاياها؟ هل أعرف من هي حقاً؟ حوّلتها أوهامها وتطيرها وشدة الخوف إلى مخلوقة غريبة، تختلف في كل شيء.

أخيراً عادت إلى نفسها ونادتني، وفعلت كل ما بوسعي لأهدئ روعها وأعيد لها الثقة والاطمئنان.

أصغت إلي مقطبة وقالت بصوت ناشج مرتجف: «لا تتركني بعد الآن أبداً وحيدة دون نور».

وما أن زال خوفها حتى حلت الغيرة محله، «ماذا كنت تفعل في المدينة؟»).

« لقد ذهبت لتقابل النساء، تلك النسوة اللواتي يرقصن ويشربن الخمرة، ويمنحن أنفسهن للجنود والبحارة وللناس كلهم».

ما كنت لأتشاجر معها، كان الليل رقيقاً، رقيقاً وحاراً، ليل استوائي.... كانت تهوره شديدة الحكمة والذكاء أحياناً، وأحياناً أخرى مليئة بالطيش والجنون، مخلوقين متناقضين في شخص واحد، هذا عدا عن الشخصيات الأخرى التي تختلط بتكوينها، كل

منها تكذب على الثانية، تتبادل معها بسرعة مذهلة، لم تكن متقلبة، إنما كانت مزدوجة أو ثلاثية أو متعددة التركيب، إنها ابنة شعب عريق.

في أحد الأيـام وصل إلى منطقتنا بائع يهودي متجول، يطوف الجزر والقارات يحمل معه صندوقاً مليئاً بالحلي الزائفة.

نشر بضاعته وأحاط الجميع به، تناقلت الأيدي زوجاً من الأقراط، والتمعت عيون النساء، كل واحدة تريده لنفسها.

عقدت تهوره حاجبيها ونظرت إلي، عيونها تكلمت بوضوح، وتظاهرتِ بأني لم أفهمها.

أخذتني جانباً: «أريدها»

وشرحت لها بأن هذه الأقراط ما هي إلا نفاية لا قيمة لها وبأنها مصنوعة من النحاس.

«أريدها».

«ولكن لماذا؟ أندفع عشرين فرنكاً ثمناً لهذه الخردة؟ هذا تصرف أحمق.

«لا»

«أريدها»

بدلع محبب ظلت تلح والدموع في عينيها، «ماذا ألا تخجل أن ترى الأقـراط تزين أذني امرأة غيري؟ هناك رجل يقول بأنه سيبيع حصانه ليحصل عليها ويهديها لامرأته» .

ما كنت لآبه لهذا الجنون ورفضت مرة ثانية.

نظرت إلى تهوره بعيون ثابتة ودون أن تتفوه بكلمة شرعت تبكي.

ذهبت لأعود ومعي العشرين فرنكاً — وأشرقت الشمس ثانية.

مر يوم، وكان يوم أحد، تهوره تستعد لارتداء ثيابها، غسلت شعرها

بالصابون ثم جففته في الشمس ومسحته بزيت معطر، ارتدت أجمل فساتينها، أمسكت أحد مناديلي بيدها وزينت رأسها بزهرة خلف الأذن، قدماها عاريتان، كانت ذاهبة إلى المعبد.

«الأقراط؟» سألتها.

فأجابت بترفع: «إنها من النحاس».

وضحكت بصوت عالٍ وهي تعبر باب الكوخ وتابعت طريقها.

في ساعة القيلولة كنا نرتاح عادة، عراة أحدنا بجانب الآخر، أو كنا نحلم، ربما كانت تهوره تحلم بأقراط لامعة، أما أنا - فأنسى كل ما أعرفه وأغفو ....

في أحد الأيام الجميلة، والله أعلم أي يوم من السنة كان فكل أيام السنة في تاهيتي جميلة، قررنا زيارة بعض الأصدقاء وكانت أكواخهم تبعد عنا حوالي عشرة كيلومترات، بدأنا مسيرنا الساعة السادسة صباحاً، وفي برودة الصباح تمكنا من انجاز معظم طريق الرحلة ووصلنا إليهم الساعة الثامنة تقريباً.

لم تكن زيارتنا متوقعة، استُقبلنا بالحفاوة وبعد أن انتهت مراسم الترحيب ذهب أصدقاؤنا في طلب خنزير صغير «ليولموه» لنا، ذبحوه وأضافوا إلى الوجبة دجاجتين وأصدافاً بحرية طازجة كانت قد جمعت هذا الصباح، وموز وفاكهة، اقترحت أن نزور مغارة مارا ريثما يحين وقت الظهيرة، غالباً ما رأيت المغارة من بعيد دون أن تسنح لي فرصة زيارتها.

ذهبنا، ثلاث فتيات صغيرات، فتى صغير، تهوره وأنا، رفقة جذلة، وبسرعة وصلنا إلى المكان المنشود.

حافة الممر المؤدي إلى المغارة مغطاة تماماً بنبات الجوافة، تبدو للوهلة الأولى كشرخ في الصخر وعندما تزيح الأغصان وتتقدم

ينحجب عنك ضوء الشمس وتجد نفسك في كهف تتراءى نهايته كخشبة مسرح، سقفه أحمر يرتفع فوقك بما يقارب المائة متر، هنا وهناك على الجدران تمد أفاع هائلة جسدها ببطء كما لو أنها تسعى للشرب من البحيرة - هذه الأفاعي جذور وجدت لنفسها طريقاً عبر صدوع في الصخر.

«هل نسبح؟».

أجابوني بأن الماء بارد، ثم كان هناك مفاوضات وضحك أثار فضولي، وبعد إلحاح قررت الفتيات الصغيرات الخوض في الماء وضعن ثيابهن جانباً لففن الأوشحة حول خصورهن وسرعان ما كنا جميعاً في الماء.

وارتفع الصياح «توبي توبي» .

تموج الماء وعادت الصيحات إلينا بآلاف الأصداء تردد «توبي توبي»،

«هل تأتين معي؟» سألت تهوره مشيراً إلى نهاية المغارة.

«هل جننت؟ إلى هناك؟ وماذا عن الأنقليس؟ لا أحد يذهب إلى هناك».

برقة وليونة عادت إلى حافة البحيرة تتباهى بمهارتها في السباحة، ولكنني أيضاً سباح ماهر، ومع أنني لم أستسغ فكرة المغامرة والسباحة إلى هناك وحدي إلا أنني بدأت طريقي.

لست أدري أية ظاهرة سرابية عجيبة كانت تبعد نهاية البحيرة كلما سبحت إليها وناضلت للاقتراب منها، كنت أتقدم دونما توقف، تحيط بي من كل جهة أفاع ضخمة تنظر إلي بسخرية، وللحظة بدا لي بأنني أرى سلحفاة كبيرة تسبح نحوي ترفع رأسها، رأيت عينيها اللامعتين تنظران إلي بريبة.

وفكرت مستغرباً، سلحفاة البحر لا تعيش في المياه العذبة.

هل تحولت إلى ماووري؟ الشكوك هجمت عليّ وصرت على حافة الاضطراب والارتجاف، من تلك التموجات الصامتة هناك أمامي؟ انقليس؟ تعال تعال أيها الأنقليس يجب أن تقضي على الرعب الذي استولى علي؟

تركت نفسي أغوص بشكل عامودي لألمس القاع، لكن كان علي أن أطفو ثانية قبل أن أتمكن من ذلك، ومن الحافة الأخرى نادتني تهوره:

«عد».

التفت فرأيتها بعيدة جداً وصغيرة... لماذا تبدو المسافات هنا بلا نهاية، تهوره مجرد نقطة سوداء في حلقة نور.

تابعت بإصرار وغضب، وسبحت لمدة نصف ساعة أخرى، ولكن النهاية ظلت بعيدة، وجدت مكاناً صغيراً أرتاح عليه، خلفه تفتح فجوة ثغرها، إلى أين تؤدي؟

لغز لا أرغب بحله أبداً.

اعترف أخيراً بأنني ذعرت.

واستغرقت عودتي ساعة كاملة.

كانت تهوره تنتظرني وحدها، تركها الآخرون.

تمتمت بصلاة ما ثم غادرنا المغارة.

كنت لا أزال أرتجف من البرد، وتحسن حالي بمجرد خروجنا إلى الهواء الطلق خاصة عندما سألتني تهوره بابتسامة لا تخلو من الخبث:

«هل خفت؟»

«الفرنسيون لا يعرفون الخوف!» أجبتها بجرأة.

لم تبد تهوره تعاطفاً ولا إعجاباً، ولكني لاحظت بأنها كانت تراقبني بطرف عينيها حين تقدمتها ألتقط زهرة لتزين بها شعرها.

كان الطريق جميلاً، والبحر رائعاً، وأمامنا يرتفع جبل «موريا» العظيم، ما أمتع الحياة! وبأية شهية سنلتهم الخنزير الصغير الذي ينتظرنا في البيت بعد ساعتين من السباحة القاسية!

أقيم حفل زواج كبير في «ماتايا» – عرس حقيقي من النوع الذي تتطفل عليه البعثات التبشرية – زواج مدني وديني.

في تاهيتي كما في أي مكان آخر تعتبر الوليمة الجزء الأهم من الاحتفال، في تاهيتي على أية حال، تستعرض كافة فنون الطهي، خنازير صغيرة مشوية على الحجارة الساخنة، كمية وفيرة من السمك، الموز، الجوافة، والعديد العديد من الثمار الغريبة.

رتب الطعام على المائدة وتحلق المدعوون حولها، تحت سقف مزين، بطريقة ساحرة، بالأزهار وأوراق الأشجار، والجميع هنا، الأقرباء كلهم، والعروسان وأصدقاؤهما، وكانت العروس شابة خلاسية تعمل مدرِّسة، والعريس شاب ماووري حقيقي، ابن رئيس «بوناؤيا»، كانت الفتاة قد تلقت تعليمها في إحدى مدارس البعثات الدينية في بابيتي، واهتم الأسقف البروتستانتي شخصياً بإتمام زواجها الذي اعتبره البعض عملاً متسرعاً، ولكن إرادة البعثة الدينية هنا هي إرادة الله...... وظلوا يأكلون مدة ساعة.

بعدها بدأت الخطابات، وكان منها الكثير، تتلى بنظام وطريقة محددتين سلفاً، وتجري منافسة مثيرة للفضول في هذا الخصوص.

ثم يأتي السؤال الهام، أي العائلتين ستمنح العروسين اسمهما الجديد؟ يعود هذا التقليد إلى زمن بعيد ويعتبر ذا أهمية كبيرة، فهو امتياز يرغب به الطرفين ويتخاطفونه، وكثيراً ما يؤدي النقاش حول

الموضوع إلى قتال حقيقي، في هذه المرة لم يحدث شيء من هذا، مر كل شيء بسلام ومرح.

ثمل الجميع، وكذلك زوجتي التي لم أستطع مراقبتها طوال الوقت، شربت حتى ثملت، ولم تكن إعادتها إلى البيت بالأمر السهل......

إلى وسط المائدة جلست زوجة رئيس «بوناؤيا» متوجة بفخر يثير الإعجاب، أعطاها ثوبها البرتقالي المخملي مظهر بطلة، أو سيدة بلاد الحسان، وأضافت رقة تعبيراتها التاهيتية عظمة خاصة إلى بهجتها.

أعطى وجود هذه المرأة النبيلة ذات العرق التاهيتي الصافي نكهة خاصة ولاذعة للاحتفال، تسربت إلى الطعام والروائح المنتشرة وحتى إلى الأزهار، نكهة أقوى من أية نكهة أخرى، سحرت الجميع.

إلى جانبها جلست امرأة في المائة من عمرها، متداعية كشبح، لها صفا أسنان وحشية، لم تكترث لما يجري حولها، جلست دون حراك ثابتة كمومياء على خدها وشم غريب يوحي بشكل حرف لاتيني، لا يشبه أي وشم محلي آخر، وضعته على وجبتها يد أوروبية دون شك، وشم ينطق بحكايتها.

استفسرت عن الموضوع.

فيما مضى كما قالوا لي، حاربت البعثات الدينية خطيئة الجسد، فكانوا يختمون «بعض النساء» بعلامة هي ختم العار أو الجحيم، وكان هذا يسبب لهن الخزي والذل، ليس بسبب الخطيئة المرتكبة، وإنما بسبب الهزء والازدراء الذي يتعرضن له بوجود مثل هذه العلامة.

وفهمت في ذلك اليوم سبب فقدان ثقة الماووري بالأوروبي واستمرار ذلك حتى هذا اليوم، ولا يخدعنك الحفاوة والكرم التي يبدونها لنا فهي صفات متأصلة بهم شأنهم شأن كافة سكان جزر المحيط .

بعد خمسة أشهر أنجبت العروس الشابة طفلاً مكتملاً، غضب الأهل وطلبوا الانفصال، لكن الشاب رفض قائلاً: «ما دمنا نحب بعضنا فما الفرق؟ أليس من عاداتنا أن نتبنى أبناء الآخرين؟ وها أنا أتبنى هذا الطفل».

ولكن لماذا كان الكاهن حريصاً على الإسراع بإتمام مراسم الزواج؟ كانت هناك أقاويل كثيرة، وكانت الألسن الخبيثة تلمح إلى أن هناك ألسن خبيثة في «تاهيتي» كذلك.

حين نستلقي في المساء تدور بيننا عادة أحاديث طويلة وأحياناً تكون جدية، الآن وقد أصبحت أفهم تهوره التي ينام أجدادها داخلها ويحلمون، تجدني أسعى كي أرى الأشياء وأفهمها من خلال هذه الطفلة باحثاً فيها عن آثار الماضي البعيد الماضي البعيد الذي غاب اليوم عن حياتهم الاجتماعية، واستمر فقط في ذكريات مبهمة، أطرح الأسئلة وهي تجيب.

ربما نسي رجال تاهيتي المأخوذون بحضارتنا والمتأثرون بغزونا آلهتهم القديمة ولكن النساء احتفظن في ذاكرتهن بمكان لها، أنه لمشهد مؤثر، مشهد تهوره حين أوقظ غيب في ذاكرتها آلهتها القديمة؟ وأخلع عنها ذلك الغلاف المصطنع الذي اعتقد أصحاب البعثات البروتستانتية بضرورته، كان تأثير التعاليم المسيحية سطحياً جداً وخاصة على النساء، وتأثير الجهود الكبيرة التي بذلتها البعثات الدينية أقل بكثير مما رجوه، وما كانت تعاليمهم أكثر من مسحة رقيقة براقة تذوي وتتلاشى بمجرد خدشها في المكان الحساس.

تهوره تذهب إلى المعبد بانتظام، تؤكد ولاءها، وهي تحفظ عن ظهر قلب، وليس هذا بالشيء القليل، أسماء جميع آلهة الماووري، كما تعرف كل القصص المتعلقة بهم.

حكت لي كيف خلقوا العالم، كيف حكموه، وكيف نصبوا أنفسهم أسيادا أقوياء مكرمين، تجد نفسها غريبة أمام جمود وتقيد الأخلاق المسيحية، أو أنها ببساطة تامة، لا تكترث لها، وهي مثلاً لا تشعر بالخطيئة لكونها محظية رجل غريب، لا أفهم كيف يلتقي بذهنها كل من «تاروا» والمسيح، وأعتقد بأنها تؤمن بالاثنين معاً.

وحين جاءت الفرصة قدمت لي شرحاً مفصلاً عن الديانة التاهيتية، بالمقابل حاولت أن أفسر لها بعض الظواهر الطبيعية كما يفهمها الأوروبيون، أثارت النجوم اهتمامها، وسألتني عن الاسم الفرنسي لنجمة الصباح، ونجمة المساء والنجوم الأخرى، من الصعب عليها أن تفهم أو أن تتخيل بأن الأرض تدور حول الشمس.... ذكرت لي أسماء الفلك التاهيتية، وبينما كانت تتحدث كنت أميز في انعكاس ضياء النجوم عليها، الشكل المقدس للماووري أسياد الهواء والنار، أسياد الجزر والمحيطات.

لسكان تاهيتي القدماء معرفتهم الخاصة بالفلك، وكان «للآورا «وهم جماعة دينية عسكرية لها أنظمة سرية خاصة أعياد فصلية تقوم على أساس دورة النجوم، حتى طبيعة القمر، كان للماووري مفهوم خاص عنها، فهم يعتقدون بأن القمر كرة كالأرض، مسكونة وغنية بالثروات، أما المسافة التي تفصل بينهما فيقدرونها بالزمن اللازم لطيران حمامة بيضاء حملت بذور شجر «الآورا» من القمر إلى الأرض فاستغرق وصولها دورتين قمريتين وقعت بعدها على الأرض وقد تساقط ريشها، ويعتبر هذا الطير أكثر الطيور رشاقة وسرعة عند الماووري.

وها هي أسماء النجوم بالتاهيتية وقد أكملت المعلومات التي زودتني بها تهوره بمساعدة مخطوط قديم جداً عثر عليه في بولونيزيا.

أنبالغ في افتراضنا بأننا أمام بداية نشوء نظام فلكي عقلاني، ولسنا أمام مجرد لعبة بسيطة من ألعاب الخيال؟ :

روا – البداية العظيمة – نام مع زوجته الأرض الممتعة.

ولدت ملكها، الشمس ثم الغسق، ثم الليل.

بعد ذلك هجر روا زوجته.

روا – البداية العظيمة– نام مع المرأة التي تدعى « الوحيدة الكبرى».

ولدت السماء الذهبية، الملك الذي نام مع زوجته «فانوبي»،

ولدت له النجم «تاوروواوا» الزهرة – نجمة الصباح، منح الملك تاوروواوا لليل والنهار وللنجوم الأخرى، القمر والشمس نظامها، وكان مرشداً للبحارة، أبحر «تاوروواوا» إلى الشمال حيث ضاجع زوجته فولدت النجم الأحمر، النجم الذي يلمح في السماء بوجهين.

النجم الأحمر يطير إلى البعيد، يهجر زورقه، ويتوجه نحو السموات، عند شروق الشمس يبحر بعيداً.

«ريهووا» ينهض الآن في اتساع الفضاء، ينام مع زوجته «اورا تانبيا» ويلد لهما التوأم الملكي، نجوم الثريا.

ولقصة الخلق البولينيزية هذه تنويعات تزيدها تعقيداً، ولعلها إضافات تمت مع مرور الزمن. «تاروواوا» نام مع المرأة التي تسمي نفسها آلهة الخلاء (البحر) فولدت الغيوم البيضاء، والغيوم السوداء، والمطر، «تاروواوا» نام مع المرأة التي تسمي نفسها آلهة الداخل (الأرض) فولدت النبتة الأولى.

ومنها ولد كل ما ينمو على سطح الأرض.

ولد ضباب الجبل.

ولد ذلك الذي يسمي نفسه القوي.

ولدت تلك التي تسمي نفسها الحسناء، أو تلك التي تتبرج لتثير الإعجاب، قذف «ماهوئي» بقاربه

جلس في قعره، عن يمينه خطاف مربوط إلى صنارة بخيط من شعر.

وهذا الخيط، الذي يمسكه بيده، وهذا الخطاف، يلقيهما ليغرقا في أعماق الكون فيصطاد السمكة الكبيرة (الأرض).

علق الخطاف.

وشعر الإله بثقل الأرض الهائل.

«تيفانو» إله الأرض (بلِ هو الأرض ذاتها) علق بالخطاف، فخرج من الليل وهو لا يزال معلقاً بالفضاء الواسع الرحب.

«ماهوئي» أمسك بالسمكة الكبرى التي تسبح في الفضاء، ويستطيع الآن أن يوجهها حسب إرادته.

يمسكها بيده.

«ماهوئي» يتحكم أيضاً بمسار الشمس، بطريقة يجعل فيها زمن الليل والنهار متساويين.

سألت تهوره أن تعدد أسماء الآلهة.

تاروا وا نام مع المرأة اوهينا إلهة الهواء

ولد لهما قوس قزح، ضوء القمر، ثم الغيوم الحمراء والمطر الأحمر.

«تارو وا» نام مع المرأة اوهينا، إلهة جوف الأرض

ولد لهما تيرو وورونوا.

ثم روو الذي خرج من خاصرة أمه.

ولنفس المرأة ولد، الغضب الإلهي والعاصفة والرياح العنيفة وأيضاً السلام الذي يعقبهما.

ومنبع هذه الأرواح يكمن في المكان الذي يرسل إليه الرسل.

وعلاقات الآلهة وتسلسل أهميتها هي مسألة خاضعة للجدل حسبما قالته تهوره، وأكثر تسلسل لمراتب الآلهة دقة هو التالي:

الأتواس، والاروماتوس

الأتواس العالية وهي إلهة تسكن السموات، وهناك سبع سموات.

والآتوس ألهة من سلالة تاروا وزوجته فيي فيي وهم: اورو، را، تاني، رو تيري، تيفانو، رونوا، توما ورا، روا اوتيا، ميي توبا، بانوا، تيفاتو تير، تيفاتو توتو، بوراي، ماهوي، هارانا، باوموري، هيرو، روئي، فنئورة، فاتوهويي، ورى.

ولكل من هذه الآلهة دوره الخاص به.

تاني يصل قمة السماء السابعة حيث نهاية السموات، وحيث يبدأ النور.

رى، فصل السموات عن الأرض.

روئي حرك مياه المحيطات وفصل كتل القارات الصلبة وقسمها إلى عدة أقسام هي الجزر.

فئورة يلمس برأسه السحاب وتقف قدماه على قاع المحيط.

فاتوهويي عملاق آخر نزل معه إلى ايفا - الأرض المجهولة - ليحاربا ويقتلا الخنزير البري الذي التهم الناس.

هيرو إله اللصوص، يحفر حفراً في الصخور بأصابعه، حرر عذراء من أسرها بعد أن وضعها العملاق في مكان مسحور، بيد واحدة قلع الشجرة التي كانت تسد باب المكان فانفك السحر....

أما الأتواس السفلي فهي تهتم بشؤون الإنسان وحياته وعمله ولكنها لا تسكن معه وهي: الآتواس ماهو، إله القرش الروح الحارسة للبحارة.

بيهو، إلهة السهول الحارسة للزراعة والحيوانات الداخنة.

نوتي اوباس، اوباس الروح الحارسة للمغنين والممثلين والراقصين.

راوو بافا ماييس، حارسة الأطباء.

التوآباس، آلهة تقدم لها النذور فتحميك من السحر والافتتان.

اوتانو حارسة العمال، تاني ايتي هاس حارسة النجارين والبنائين، ميناياس وبابياس حارسة السقوف، ماتاتينيس حارسة صانعي شباك الصيد.

الاوروماتواس آلهة تحفظ البيوت، تعاقب مثيري النزاع وتحفظ السلام في العائلات وهي: فارنا وتتاس أرواح الذين ماتوا في سن مبكرة، والبوواراس وهي أرواح الأطفال الذين يموتون أثناء الولادة والذين يعودون إلى الحياة على شكل جنادب.

الجني، وهي آلهة مختلفة، يتدعها الإنسان لنفسه دون هدف واضح سوى كونه اختار ذلك، ويلحق بها صفات إلهية يجسدها في حيوان أو نبات، أو شجرة مثلاً، ويستشيرها في كل أمر هام.

ربما نجد في هذا تأثراً بالتقمص الذي آمن به الهنود وكان الماووري على اطلاع عليه، ففي أغانيهم القديمة وأساطيرهم نجد الآلهة تأخذ شكل حيوانات ونباتات في قصص الخلق الماوورية، هناك أرواح مرتبتها أدنى من مرتبه الآلهة ولكنها لا تنتمي إلى جنس البشر، وهي وسيط بين الكائنات العضوية واللا عضوية، تدافع عن حقوق الأخيرة أمام انتهاك الأولى لها.

نام تاروا مع هينا فولد «تي».

نام «تي» مع «آني» (الشهوة) فولدت: شهوة الليل رسول الظلام والموت، ثم شهوة النهار رسول النور والحياة، شهوة الآلهة رسل الفردوس، شهوة الرجل رسول الأرض، ثم ولد «تي» الداخل الذي

يرعى الحيوانات والنباتات، و»تي» الخارج الذي يحرس الكائنات الحية ومخلوقات البحر، «تي» الرمل «تي» الشاطئ، وفي الأرض اليباب؟ «تي» الصخور و»تي» الأرض الصلبة، ثم ولد الليل والنهار، الإقبال والإدبار، التدفق والانحسار، وأخذ المتعة ومنحها، وكانت الأوثان توضع في نهاية المعبد لتشكل الحد الفاصل بين الدنيوي والديني، كما كانت تشاهد على الصخور أحياناً أو على شاطئ البحر، لتقيم الحد بين البر والبحر ولتحفظ التوازن بين العنصرين ولتكبح جماح كل منهما، وبإمكان المسافرين أن يشاهدوا تماثيل «تي» على جزيرة الفصح «ايل دو باك» وهي عبارة عن تماثيل حجرية ضخمة تمثل الإنسان أو الحيوان، وتحمل الشاهد على مفهوم جمالي خاص، وعلى مهارة أصيلة في تشكيل الحجارة، فهي مبنية بوضع كتل حجرية مرصوفة بشكل هندسي بانسجام طبيعي وفهم جمالي خاص لعنصر اللون، لقد حطم الاجتياح الأوروبي ووحدانية الدين معالم حضارة منفردة وعريقة، عندما يقوم التاهيتيون اليوم ببناء صرح ما، تجدهم ينجزون العجائب من ذوق فاسد يخلو من أي أصالة، مثل ضريح الملك «بوماري»، لقد وهبتهم الطبيعة شعوراً غريزياً بالانسجام العفوي بين عمل الإنسان وما يحيط به من نبات وحيوان كخلفية تزيينية متناسبة مع وجودهم، لكن هذا ضاع اليوم، فباحتكاكهم معنا، مع «مدارسنا الفنية»، صاروا حقاً «متوحشين» بالمعنى الذي يفهمه الغرب، روحهم لا تزال جميلة كرائعة من روائع الطبيعة، أخلاقهم وأجسامهم صارت عقيمة.

لا تزال بعض آثار الماووري العمرانية باقية، منها بناء عبارة عن متوازي أضلاع له عدة فتحات، ثلاثة من أضلاعه مكونة من جدران حجرية بارتفاع يتراوح ما بين متر ونصف إلى مترين ونصف، أما الضلع الرابع فهو عبارة عن هرم أقل ارتفاعاً من الأضلاع الأخرى،

يبلغ عرضه الإجمالي مائة متر وطوله أربعون متراً، وتزين صور الإله «تي» جدران هذا التشكيل الهندسي البسيط.

للقمر مكانة خاصة في معتقدات الماووري الميتافيزيقية، تقام له الاحتفالات وغالباً ما يرد ذكره «هينا» في قصص آلهة» الاروا» القديمة، إلا أن دوره أو مساهمته في انسجام العالم سلبي أكثر منه إيجابي، ويبدو هذا واضحاً من الحوار الذي يجري بين هينا و«تيفاتو».

وتزودنا نصوص القصص الديني هذه بمادة جذابة وغنية للدراسة والتحليل، ترى فيها قبل كل شيء مبادئ ديانة تقوم على عبادة قوى الطبيعة - وهو أمر مشترك بين كافة الديانات البدائية - ومعظم آلهة الماووري هي تجسيد لعناصر الطبيعة، نظرة فاحصة وغير متحيزة ولا تتضمن محاولة البرهان على مدى تفوقنا وتفوق فلسفتنا على فلسفة هذه القبائل، تجعلنا نكتشف عناصر خاصة ومتفردة في أساطيرها.

وبودي أن أشير إلى اثنين من هذه العناصر إشارة عادية دون عرضها للتحليل والدراسة فهذا عمل الاختصاصيين.

نميز قبل كل شيء الوضوح الكامل الذي يذكر به عنصرا الحياة الأساسيان والتمييز الدقيق بينهما ثم اتحادهما في وحدة عليا، العنصر الأول هو الروح والذكاء «تاروااوا» الذكر، العنصر الثاني هو مادة وجسد هذا الإله، وهي الأنثى «هينا»، إليها تعود عواطف البشر، وإليه يعود احترمهم، و«هينا» ليس اسما للقمر وحده فهناك هينا الهواء وهينا البحر، وهينا الداخل، وهي كلها ملحقات ثانوية للمادة، أما «تارواوا» فهو الشمس والسماء، النور ومملكته، وكل عناصر المادة النبيلة أو روح المادة، وهذا الفصل بين الروح والمادة نجده في أكثر من نص ديني واحداً، كما نجد تعريفاً واضحاً للروح والمادة كعنصرين

مستقلين، وإذا سلمنا بمفهوم استقلال الروح عن المادة فأي دلالات يمكن أن نستنتجها من معتقدهم عن أصل الحياة الذي يقول: «الكون العظيم المبارك هو الغلاف الذي يحوي تارواوا».

ألا يتضمن هذا المعتقد فهماً أولياً وبسيطاً لوحدة المادة؟ أليس في هذا التعريف وفي الفصل بين الروح والمادة تحليل وإدراك لثنائية العنصر الواحد؟ ومن الواضح أن لسكان جزر المحيط ديانة ثنائية الإيمان، الإيمان بقوى تخلق العالم وقوى تحافظ على استمرار وجوده:

الخلق أو البادرة الأولى لحركة الوجود، ثم المادة التي اكتسبت الحياة، القوة الفاعلة والعنصر الذي يتم فيه الفعل، أي الروح والمادة، ويبدو واضحاً في قصصهم الدينية بأن الإتحاد الدائم بين الروح المضيئة والمادة التي تكتسب منها الحياة أو بشكل آخر الإتحاد بين «تارواوا» و«هيتا» هو تعبير عن التأثير الدائم والمتعدد الأشكال للشمس على كل الأشياء، ونرى ثمار هذا الاتحاد في التبدل الذي نلاحظه على مظاهر الحياة بفعل النور والدفء عندما نفهم هذه الظاهرة بوضوح ندرك أن قوة الخلق تندمج في الثمار مع المادة المخصبة وفي الحركة تتحد، وفي الحركة تتحد القوى المحركة مع الجسم الذي تؤثر فيه هذه القوة، وفي الحياة تتحد الروح المادة، وندرك بأن الكون الذي خلقته الآلهة ما هو إلا الغلاف الذي يحيط «بتارواوا» .

ويتضح من الحوار الذي يدور بين «تيفاتو» و«هينا» أن الإنسان والأرض فانيان بينما القمر ومن عليه خالدان، إذا أعدنا إلى أذهاننا بأن «هينا» تمثل المادة، وقارنا هذا بالمفهوم العلمي الذي يقول بأن «المادة تتحول ولا تفنى»، فإننا نجد أنفسنا أمام إدراك الحكيم الماووري الذي ابتدع هذا المفهوم، وإدراكه ماهية المادة وطبيعتها كما ندركها نحن، فهي لا تفنى.وإنما تتحول أي أنها لا تفقد الصفات

المادية المدركة بالحواس، بينما تخضع الروح والنور وكل العناصر الروحية للتبدل وبمفهوم الماووري فإن أعلى تجل للروح هو الإنسان.

«على الإنسان أن يموت، ، ، ، ، يموت كي لا ينهض أبداً ، ، ، ، ، ولا بد للإنسان من أن يموت».

ولكن حتى حين يفنى الإنسان والأرض التي تعيش عليها، فإن تارواوا نفسه سيبقى خالداً وهينا المادة ستخلد كذلك، وسيكون هناك دائماً روحاً ومادة، النور والعناصر التي يضيؤها، وستحثهما رغبة متبادلة لاتحاد جديد ينتج عنه حالة جديدة للوجود ضمن سلسلة التطور اللانهائي للحياة.

التطور! .... وحدة المادة! من كان يتوقع أن يجد ما يشهد على رقي حضارة آكلي لحوم البشر الأوائل؟ بإمكاني أن أقول وأنا مرتاح الضمير بأني لم أضف أي شيء إلى الحقيقة، صحيح أنه لم يكن لدى تهوره أية شكوك حول هذه الصور التجريدية، إلا أنها كانت تلح على اعتبار الشهب «توبوباوس» أي أرواحاً هائمة وجنياً حزيناً.

وكانت تعزو العواطف الإنسانية إلى النجوم فالسماء هي «تارواوا» و«الآتواس» قوم انحدروا منه وهم آلهة أو أجسام سماوية، كانت تؤمن بذلك بنفس الطريقة التي آمن بها أجدادها، بإمكان المرء أن يتساءل إلى أي مدى يعيق هذا الخيال الشاعري تطور العلوم الإيجابية، وهل تدينهم أكثر العلوم تطوراً، لو كان الحكيم الذي أطلق هذه المفاهيم موجوداً اليوم لأدرك وأعلن بأن تاهيتي نفسها تتعرض للتبدل اليوم شأنها شأن الروح والمادة وبأنها تتغير وستموت تموت كي لا تنهض أبداً.

كانت تهورة تتحدث بنوع من الرهبة والخشوع عن طائفة «الاروا» السرية التي حكمت الجزيرة في فترة مضت بقسوة.

من خلال حديث الطفلة المضطرب استطعت أن أحلل وأفك

ذكريات مريعة لمؤسسة حكمت وارتكبت الجرائم، ولكن معرفة التفاصيل الدقيقة صعب جداً فيم يحيطون تاريخهم بالكتمان والسرية.

بعد أن أخبرتني تهوره بكل ما تعرفه عن الموضوع قمت بتحرياتي الخاصة وهذا ما توصلت إليه حول تاريخ «الاروا» الأسطوري.

عقد «اور» ابن «تارو» كبير آلهة العزم على اختيار عروس له من بني البشر الفانين، أرادها عذراء وجميلة كي ينجبا سلالة متفوقة ومختلفة.

مشى بخطوات واسعة عبر السموات السبع، ونزل إلى جزيرة «بورا بورا» عن طريق جبل «بايا»، هناك تسكن أختاه الإلهتان «تيوري» و«أواوا» تحول «اورو» إلى محارب شاب وأختاه إلى شابتين، وبدأ رحلته في الجزر يبحث عن المخلوقة التي تستحق قبلاته.

انتزع «اورو» قوس قزح ووضع أحد أطرافه على قمة جبل «بايا» والطرف الآخر في الأرض، وهكذا عبرت الآلهة ووصلت إلى السهل والبحر.

أسرع الناس من كافة الجزر لاستقبالهم، وقدموا الهدايا للزوار الرائعين وأقاموا الولائم الشهية، وعملت النساء، كل النساء في تحضير الطعام، نظر «اورو» إليهن.

لكن قلبه امتلأ حزناً، لقد وجد الإله الحب ولكنه لم يقع به، لم تستقر نظراته طويلاً على أية فتاة من بني البشر، ولم يجد في أية واحدة منهن الرقة والنبل اللذين حلم بهما.

بعد عدة أيام أمضاها في بحث غير مجد قرر العودة إلى السماء، وفجأة، في «فايتابي» على جزيرة «بورا بورا» رأى فتاة شابة ذات جمال نادر تستحم في بحيرة «آمتي أيا» الصغيرة.

كانت طويلة القامة هيفاء، تشتعل في بشرتها كل نيران الشمس وتلتمع، وينام سحر الحب كله في شعرها.

فتن «اورو» بها، وأرسل في طلب أختيه كي يتحدثا إليها، وانسحب هو إلى قمة «بايا» ينتظر الجواب.

اقتربت الإلهتان من الفتاة، وامتدحتا جمالها، وأخبرنها بأنهن أتيا من «أفاناو» منطقة في «بورا بورا».

«أخونا يسألك أن تصبحي زوجته».

تفحصت «فايروماتي» - وهو اسم الفتاة الشابة - الغريبتين بدقة وحذر، وقالت لهما أنتما ليس من «آفاناو» ولكن هذا لا يهم.

«أخوكما سيد، وإذا كان جميلاً فليأت، ستصبح فايروماتي زوجته»، وبسرعة تستدعي «تيوريز» و«اواوا» أخاهما الذي ينتظر هناك، يضع «اورو» قوس القزح ثانية كما فعل في المرة الأولى وينزلق عليه إلى «فاتابمي» هيأت «فايروماتي» مائدة لاستقباله ووضعت عليها أجمل الفاكهة، وفرشت له سريراً من أندر المواد وأجمل حشوة.

مباركان في جمالهما وقوتهما، أحبا بعضهما تحت أشجار «التامايس» و»الباندا» في الغابة على حافة البحر، في الصباح كان الأله يصعد إلى قمة «بايا» وينزل في المساء لينام مع «فايروماتي».

ولم يسمح لأية فتاة أخرى من بني البشر أن تراه وهو على شكل إنسان، وظل قوس القزح يمتد بين «بايا» و»فايتابي» ليمر عليه الإله، وظهرت أقماركثيرة وغابت أقمار كثيرة، وفي السماء السابعة لم يكن أحد يعلم أين «اورو»، ابنان آخران من أبناء «تارواوا» هما «اوروتيغا» و»اوارتيفا» اتخذا شكل إنسان وذهبا ليبحثا عن أخيهما، ظلا يتجولان لفترة طويلة بين الجزر دون أن يجداه، أخيراً، وحين اقتربا من «بورا بورا» رأياه جالساً مع «فايروماتي» في ظل شجرة «مانغا» مقدسة، دهشا لجمال المرأة الشابة، ورغبا بتقديم الهدايا لها كرمز لإعجابهما، حول «اوروتيفا» نفسه إلى خنزير، و«اوراتيفا» إلى ريش

أحمر، ثم استعادا شكلهما الإنساني بينما بقي الخنزير والريش معهما واقتربا من الحبيبين يحملان الهدايا.

رحب «اورو» و«فيروماتي» بالضيفين بحرارة.

في تلك الليلة ولدت الخنزيرة سبعة جراء، احتفظ بالأول لمناسبة ستأتي، وضحي بالثاني للآلهة، والثالث ترك لضيافة الغريب، نذر الرابع للإله باسم الحب، واحتفظ بالخامس والسادس لغرض الإنجاب وزيادة النوع، وشوي السابع على الحجارة الساخنة (حسب العادة الماوورية) ثم أكل.

وعاد أخوه «اورو» إلى السماء،

بعد بضعة أسابيع أخبرت «فايروماتي» زوجها بأنها على وشك أن تصبح أماً، فأخذ «اورو» الخنزير الأول الذي احتفظ به وذهب إلى «رايتيا»، إلى الماري الكبير معبد الإله «فابوا».

التقى هناك رجلاً اسمه «ماهي» فأعطاه الخنزير قائلاً:

«خذ هذا الخنزير وحافظ عليه»

وتابع الإله كلامه بوقار:

«هذا هو الخنزير المقدس في دمائه لون دماء خلفي، فأنا أب في هذا العالم، سلالتي هي الاروا، إليك أمنح اسمهم وقيادتهم، فأنا لا أستطيع البقاء هنا بعد الآن».

ذهب «ماهي» إلى رئيس «راتيا» وأخبره بما جرى، وبأنه لا يستطيع الحفاظ على الأمانة دون أن يخبره بها خوفاً من أن يخسر صداقته، وأضاف:

«اسمي سيكون اسمك، واسمك سيكون اسمي».

وافق الرئيس واتخذا هما معاً اسم «ترامانيتي»

عندما عاد «اورو» إلى «فايروماتي» أخبرها بأنها ستنجب ابناً، وأمرها أن تسميه «هواتابوتي راي» صديق السماء المقدس، ثم قال:

«ها قد اكتمل الوقت، علي أن أتركك الآن».

وتحول فوراً إلى عمود نار ضخم، ارتفع في الجو بقوة عظيمة حتى تجاوز قمة «بيريري» أعلى قمة في «بورا بورا»، هناك اختفى عن أنظار زوجته الباكية والناس في ذهول.

«هوا تابوتي راي» أصبح رئيساً عظيماً، وفعل الخير الكثير للناس، وحين مات صعد إلى السماء حيث كانت «فايروماتي» بين الآلهة.

من المحتمل أن يكون «اورو» براهمياً متجولاً جاء إلى الجزيرة بعقيدة البراهما وقد سبق أن ألمحت إلى وجود آثارهم في معتقدات الماووري، في نقاء هذه المعتقدات تكمن نهضة الماووري وتلتقي العقول المتفتحة وتتفاهم وتتحد لتمارس طقوسها الخاصة بعيداً عن العامة من الناس ولأنهم كانوا أكثر تنوراً من بقية شعبهم تمكن «الاروا» من الاستيلاء على السلطتين الدينية والسياسية في الجزيرة ومنحوا أنفسهم امتيازات خاصة وأسسوا حكماً إقطاعياً قوياً يمثل الفترة الذهبية في تاريخ الأرخبيل.

كان «الاروا» يجهلون فن الكتابة ولكن كان بينهم رجال علم أمضوا أياماً طويلة يتلون بدقة كلمة كلمة أقوال الآلهة القديمة واستطاعوا بذلك أن ينقلوا للأجيال التالية نصوصهم المقدسة التي نظمت بعد سنوات من العمل الدؤوب، ولا يسمح بقراءة هذه النصوص إلا لجماعة الاروا أنفسهم أما الحكماء منهم فقد كانوا مخولين بإضافة التعليقات والتفسيرات إليها ولقد أكسبهم هذا مركزاً فكرياً متفوقاً وقوياً، أحنى الناس رؤوسهم له احتراماً وإكباراً.

هناك مؤسسات دينية مسيحية مشابهة تعود إلى القرون الوسطى

كما يعرف القارئ، بالنسبة لي لا أعرف شيئاً أكثر إرهاباً من اتحاد السلطتين الدينية والعسكرية فباسم هذا الاتحاد تصبح الأحكام إلهية ذات سلطة مطلقة في تقرير حياة أو موت الناس.

تعلم «الاروا» بأن الآلهة تحب الضحايا الإنسانية، وتسعد بها، وكانوا هم أنفسهم يضحون للآلهة بجميع أولادهم باستثناء الابن البكر، وقد استعيض عن هذه العادة فيما بعد بالتضحية بالخنازير السبع التي ورد ذكرها في الأسطورة، جميعها، باستثناء الخنزير الأول «الخنزير المقدس»، تساق للموت، دعونا لا نتسرع باعتبار هذا السلوك وحشياً، هذا الواجب القاسي الذي ساد بين شعوب بدائية عديدة له جذور اجتماعية عميقة، لقد كان تزايد السكان بين الشعوب القديمة، ومنها الماووري، غير محدود، وكان يشكل تهديداً حقيقياً لوجودهم كجماعة وأفراد.

صحيح أن الحياة على الجزيرة سهلة جداً والحصول على ضروريات البقاء لا يتطلب من المرء بذل جهد كبير، لكن المنطقة محدودة ومحاطة ببحار واسعة لا يمكن عبورها بالزوارق البسيطة، وخيرات أراضيها لن تكفي شعباً يتزايد باستمرار، لن يبقى سمك للجميع في البحر ولا ثمار تكفي في الغابة، وستحل المجاعة إن عاجلاً أو آجلاً وكما كان يمكن أن يحدث في أي مكان آخر في العالم سينتشر أكل لحوم البشر.

ولتجنب قتل الإنسان لأخيه الإنسان طوع الماووري أنفسهم لقتل الوليد، وكانت عادة أكل لحم البشر سائدة قبل مجيء «الاروا».

ولمحاربة هذه العادة والقضاء عليها تماماً كان لابد من استبدالها بعادة قتل الوليد.

قد نعتبر هذا تلطيفاً لما كان سائداً، ولكن وعلى الرغم من ذلك

فقد كان يتم في جو هو أقرب إلى الملهاة، لا شك بأن «الاروا» بذلوا جهوداً كبيرة لتحقيق هذه الدرجة من التطور، ربما اضطرهم هذا إلى منح أنفسهم سلطة إلهية تفوق سلطة البشر.

أخيراً، كان قتل الوليد طريقة فعالة للانتقاء الطبيعي والحق بالاحتفاظ بالابن البكر، والذي هو حق الحياة، حافظ على قوة العرق وحماه من النتائج السلبية لتزاوج لا اختلاط فيه ولدم مستهلك.

كما أنه ولّد في نفوس أطفالهم منذ سنين مبكرة إحساساً بالكبرياء تأصل في نفوسهم، القوة البدائية الكامنة في الكبرياء وتفتحها الأخير نلمسها اليوم ونعجب بها في السلالة النقية الأخيرة لعرق عظيم يسير نحو الفناء.

وتحول مشهد الموت وتكراره مرة بعد مرة إلى عقيدة صارمة تحفظ الحياة وتعلم الرجال كيف يحتقرون الألم، وجنى الناس من هذا فائدة عظيمة، فقد عرفوا كيف يحمون أنفسهم من الكسل الذي تحدثه البطالة والرفاه، كما صانوا أنفسهم من التوتر العصبي.

ومنذ أن بدأ الماووري تحريم الضحية البشرية بقوة القانون بدأوا ينحدرون وفقدوا طاقتهم النفسية وخصبهم الجسدي، وحتى لو لم يكن هذا هو السبب فإن المصادفة جديرة بوقفة تأمل.

كان البغاء واجباً مقدساً في مجتمع «الاروا».

ولكننا بدلنا ذلك، لم يتوقف البغاء بعد أن فرضنا عليهم فضائل حضارتنا، بل على العكس ازدهر، وصار غير إلزامي وفقد قدسيته، أصبح عملاً لا مبرر له، لا احترام فيه ولا وقار.

الكرامة والاعتزاز الدينيين ينتقلان أباً عن جد، إدراكهما والإحساس بهما يبدأ منذ الطفولة.

ينقسم المجتمع في الأصل إلى اثنتي عشر فئة يرأسها «الاروا»

الاثني عشر الأوائل، يليهم رجال المرتبة الثانية ثم مرتبة المبتدئين بدرجاتها المختلفة والتي تميزهم بوشم خاص يرسمونه على الجهة الغضة للساعد وعلى الكتفين ومفصل القدم.

«الماتوما» هي مشهد «ماووري» قديم عند «الاروا» يتم بمناسبة تتويج الملك، يغادر الحكام الجدد القصر مرتدين ثياباً فاخرة محاطين برجال وشيوخ البلدة، يرافقهم المعلم الأكبر للاروا واضعاً على رأسه ريشاً نادراً غريباً، عندما يراه الكهنة المنتظرين عند باب المعبد، يعلنون بدء مراسم الاحتفال بنفخ الأبواق وقرع الطبول.

يدخل الملك إلى المعبد، تمدد أمام تمثال الإله ضحية إنسانية.

يتلو الملك صلاة ويغني الكهنة بينما يشرع أحدهم بنزع العينين من جسد الضحية، تقدم العين اليمنى إلى الإله، واليسرى إلى الملك الذي يفتح فمه كما لو أنه سيبتلعها، ولكن الكاهن يسحبها ويضعها مع بقية الجسد.

يوضع تمثال الإله فوق منصة يحملها الكهنة ثم يجلس الملك فوق كتفي رئيس الكهنة ويخرج الجميع وراء تمثال الإله المحمول إلى الشاطئ يصحبهم الاروا، يرقص الكهنة على طول الطريق ويستمرون في نفخ الأبواق وضرب الطبول.

يتبعهم الناس بصمت وخشوع.

يتمايل الزورق المقدس بلطف في خليج صغير بعد أن يزين بأغصان خضراء وأزهار، ويوضع التمثال فيه ثم تخلع ثياب الملك ويقوده الكاهن إلى البحر حيث يأتي»اتواس ماوو» إله القرش مع الأمواج ليغسله ويمس جسده ويباركه، وهكذا يتقدس الملك للمرة الثانية ويقبل البحر أمام نظر الإله بعد أن نال المباركة الأولى في المعبد، يصعد بعدها إلى الزورق، وهناك يطوق الكاهن الأكبر خصره

«بالمارو ارو» ويضع حول رأسه «التاوو ماتا» عصبة الحكم، يقف الملك في مقدمة الزورق المقدس يحيي الناس عارضاً نفسه لهم.

هنا ينقطع الصمت الطويل وتتناثر الصيحات في كل مكان.

«ميفا آري» يحيا الملك.

عندما تصدح أول جلبة للفرح يحمل الملك إلى المنصة المقدسة حيث كان التمثال ثم يتوجه الجميع إلى «الماري» ثانية وبنفس النظام الذي جاؤوا به،

ويحمل الكهنة التمثال بينما يحمل الشيوخ والرؤساء الملك.

ويبدأ الاحتفال ثانية بالغناء والرقص.

يتبعهم الناس وهم في حالة من الابتهاج والفرح، وتنطلق صيحات «يحيا الملك».

يوضع التمثال بكل وقار في محرابه.

تنتهي بذلك المراسم الدينية، ويبدأ الاحتفال الشعبي.

وكما عقد رابطة بينه وبين الآلهة في المعبد، والطبيعة في البحر، كذلك يبدأ الملك صلته بالشعب فيستلقي على فراش ويتقبل ولاء الناس له، ولاء جنوني لشعب همجي.

كل الناس تعبر عن حبها لرجل، الملك، والمشهد مريع تقشعر له الأبدان، حوار بين جمع غفير من الناس وشخص واحد هو الملك الذي سيصبح اعتباراً من الغد الرئيس الأكبر، والمتحكم الأول في أقدارهم، يأتمرون بأمره ومستقبلهم بيده، هذه هي الساعة الأخيرة التي يملكونها لأنفسهم.

رجال ونساء عراة تماماً يتحلقون حوله يرقصون رقصات فاسقة داعرة، يشرعون بمحاولة ملامسة جسده بمناطق معينة من أجسادهم.

ويتصاعد جنون الناس تدريجياً ويتحول إلى هستيريا جماعية،

وتهتز الجزيرة المسالمة بصيحات مخيفة، ويهبط الظلام مع مشهد غير اعتيادي لجمهرة من الناس بحالة نشوة جنونية.

فجأة يسمع صوت البوق والطبل.

هنا ينتهي الملك من عقد أواصر الولاء بينه وبين شعبه ويختتم الاحتفال، تعلن إشارة التوقف، يمتثل الجميع لها، ويسود المكان سكون مطلق.

ينهض الملك بهدوء ووقار، ويدخل القصر ترافقه حاشيته.

اجتاحتنا منذ أسبوعين جحافل من الحشرات الطائرة، تأتي عادة في موسم معين وتتكاثر بشكل لا يطاق.

لكن الماووري يفرحون بها، لأنها تجذب «البونيتوس» وسمك «التونا» إلى سطح الماء لتلتهمها، ويعلن بذلك بدء موسم الصيد، موسم العمل، موسم المتعة في تاهيتي.

يختبر كل صياد قوة وصلاحية صنارته وخطافه، النساء والأطفال منهمكون بحيوية غير عادية في جر الشباك أو قضبان ورق جوز الهند إلى الشاطئ حيث المرجان يحتل قاع البحر بين اليابسة والجرف، يمسكون بهذه الطريقة أنواعاً من السمك الصغير الذي يستعملونه طعماً في صيد التونا.

بعد أن تنتهي التحضيرات التي تستغرق ما لا يقل عن ثلاثة أسابيع، يشد زورقان كبيران إلى بعضهما ويليقان في الماء، لهما في المقدمة عمود طويل يتحكم برفع حبلين مربوطين في طرفه، يزود كل حبل بخطاف وطعم يرفعان بسرعة من الماء ما أن تعض السمكة الطعم.

خرجنا إلى البحر في صباح جميل، بعد أن ساهمت طبعاً في الأعمال التحضيرية وسرعان ما أصبحنا خلف خط الجرف، قطعنا

مسافة كبيرة في عمق البحر، لا زلت أرى أثر سلحفاة رفعت رأسها فوق الماء لتراقبنا أثناء مرورنا.

كان مزاج الصيادين رائقاً، وكانوا يجدفون بشغف.

وصلنا إلى منطقة يسمونها «ثقب التونا» حيث البحر شديد العمق ويواجه مغارة «مارا».

هناك تنام أسماك التونا بأعماق لا تصل إليها أسماك القرش.

سحابة من طيور البحر حلقت فوقنا بحثاً عن التونا، وما أن تظهر سمكة حتى تنقض عليها بسرعة لا تصدق لترتفع ثانية حاملة غنيمتها بمنقارها، هكذا في كل مكان، في البحر، في الجو، وفي زورقنا كانت المجزرة مستمرة، عندما سألت رفاقي لماذا لا يتركون صنارة طويلة تغرق إلى الأعماق في منطقة التونا أجابوني بأن هذا مستحيل لأن المنطقة مقدسة.

«هناك يسكن إله البحر».

لا بد أن هناك أسطورة وراء هذا المعتقد، ودفعتهم دونما صعوبة إلى أن يرووها لي، «روا هاتو» وهو نوع من «نبتون» تاهيتي، ينام في قاع البحر، ذهب أحد الماووري الحمقى ليصيد في ذلك المكان فعلق خطافه في شعر الإله، فأيقظه، ثار غضب الإله، وصعد إلى السطح ليرى المتهور الذي أقلق راحته، وعندما تبين له أن المذنب هو إنسان، حكم على بني البشر بالموت كي يكفروا عن ذنب ارتكبه واحد منهم، ولسبب مجهول تمكن المذنب من الحصول على المغفرة والخلاص من العقاب، فأمره الإله أن يذهب هو وعائلته إلى: توامارااما».

ويقول البعض أنها جزيرة أو جبل، بينما يقول آخرون بأنها زورق أو فلك، عندما ذهب الصياد وعائلته إلى المكان المحدد بدأت المياه بالارتفاع وغطت أعالي الجبال ومات كل من على الأرض ما عدا المخلوقات التي طارت إلى «اومارااما» وجددت إعمار الجزيرة.

تركنا منطقة التونا وراءنا، وكلف قائد القارب شخصاً بمد الحبل فوق سطح الماء وإخراج الخطاف.

انتظرنا دقائق طويلة لم يتحرك الحبل ولم يمس الطعم.

جاء دور شخص آخر، عضت سمكة تونا كبيرة الطعم في هذه المرة، وسحب الحبل إلى الوراء واضطر رجلان إلى شده بقوة كي يرفعوه فوق سطح الماء، وما أن ظهرت التونا حتى قفزت سمكة قرش ضخمة بين الأمواج، ضربتها عدة ضربات بأسنانها المخيفة، وبعد وقت قليل لم تترك شيئاً على الخطاف سوى رأسها، أعطى القائد إشارة، وأمسكت بالخطاف.

لم يمض وقت طويل حتى علقت سمكة تونا كبيرة، ولاحظت همساً وضحكاً يدور بين رفاقي، فتلوها بضربات على الرأس فاهتزت وتلوت وهي تموت في قاع القارب، وتحول سطحها إلى مرآة متعددة الوجوه لامعة ترسل انعكاسات ألف نار.

مرة أخرى كنت محظوظاً.

حتماً لقد جلب الفرنسي الحظ لنا، وهنأني أصدقائي مصرين على أنني رجل محظوظ ولم أنكر ذلك متباهياً بنفسي.

ولكني لاحظت أن هذا المديح تخلله نوع من الهمس والضحك الذي لم أتمكن من تفسيره، واستمر الصيد حتى المساء.

وعندما امتلأ مخزن السمك وأرسلت الشمس شعاعاً أحمر في الأفق، سار قاربنا في طريق العودة مليئاً بالتونا.

سألت أحد رفاقي عن معنى تبادل الهمسات والضحك الذي أعقب غنيمتي الاثنتين، لكنه رفض الإجابة، ألححت وأنا أعرف ضعف الماووري أمام الإلحاح وسرعة استسلامه أمام الضغط الشديد، فأسر إلي في النهاية بأن السمكة حين تعلق في الخطاف من فكها السفلي

- وهكذا علقت سمكتاي الاثنتان - فإن هذا يعني بأن محظية الرجل غير مخلصة له أثناء غيابه.

ابتسمت بشيء من الشك، وعدنا.

الليل يهبط بسرعة في منطقة المدار ومن الضروري الاحتياط لذلك، اثنان وعشرون مجدافاً كانت في البحر تغوص وتظهر بانتظام والمجدفون يصدرون صيحات إيقاعية وخلّف قاربنا وراءه أثراً فوسفورياً متوهجاً، تملكني شعور جنوني بالطيران، حولنا كانت الأسماك المذعورة تقفز كقطيع خيالي لكائنات ليس لها شكل محدد.

وبعد ساعتين كنا نقترب من الجرف.

البحر هنا ينبض غضباً، والممر خطر بسبب ارتفاع الموج، وتوجيه القارب ليس بالأمر السهل، ولكن التاهيتيين بارعون في ذلك، يعملون بشغف لا يخلو من الخوف، وتابعت مراقبة العملية التي تمت بمهارة فائقة.

كانت اليابسة أمامنا مزروعة بمشاعل النار مشاعل ضخمة صنعت من أغصان جوز الهند الجافة، مشهد رائع، عائلات الصيادين تنتظر على الرمال، والماء يعكس وهج النار، حين وصلنا بقيت بعض الوجوه في مكانها بينما ركض آخرون على طول الشاطئ يلوحون بمشاعلهم، الأطفال يقفزون هنا وهناك، صيحاتهم الحادة تسمع من بعيد.

بدفعة قوية استقر القارب فوق الرمال.

وبدأ الصيادون في الحال تقسيم الغنائم.

وضع السمك على الأرض ووزعه قائد القارب بالتساوي بين الرجال والنساء والأطفال، سواء من ذهب منهم إلى الصيد أو من ساهم بالتقاط الأسماك الصغيرة للطعم، كان هناك سبع وثلاثون حصة.

بسرعة أخذت محظيتي فأساً صغيرة، قطعت بعض الأخشاب وأشعلت ناراً بينما كنت أبدل ثيابي وألبس ما يدفئني في برودة الليل.

شوت تهوره واحدة من حصتينا ثم وضعت ما تبقى جانباً وبدأت تسألني عن أحداث النهار، وأشبعت فضولها وأنا سعيد بذلك، كانت تستمتع بكل شيء، كالطفل، وأنا كنت أراقبها دون أن أجعلها تشعر بما يدور في رأسي من أفكار، استيقظ في أعماقي شعور لا إرادي بالقلق ولم أعد قادراً على تهدئته، كنت أتحرق لأوجه لها سؤالاً محدداً، سؤالاً محدداً..

عبثاً، قلت لنفسي، لم؟ أي خير في هذا؟ وأجبت نفسي: من يدري؟

وحانت ساعة النوم، وحين تمددنا جنباً إلى جنب سألتها فجأة؟

«هل كنت راضية؟»

«نعم»

«وهل أرضاك عشيقك اليوم؟»

«ليس لي عشيق»

«أنت تكذبين لقد تكلمت السمكة»

رفعت تهوره رأسها ونظرت إلي بعيون ثابتة وارتسمت على وجهها تعابير غير عادية من الخيلاء والغموض والكبرياء، تعابير لم أعتد عليها عندها ولم أكن أتوقع أبداً أن أراها على هذا الوجه الطفولي المرح.

تبدل الجو في كوخنا، وشعرت بشيء غريب قام بيننا، ورغماً عني تركت أوهامي تقودني، وانتظرت إشارة من السماء تهبط علي، لم أشك بأن هذه الإشارة ستأتي واجتاحتني سخرية من غروري العقيم وإيماني القوي بأوهام وجدت جذورها في خرافات قديمة.

توجهت تهوره بهدوء نحو الباب وتأكدت بأنه محكم الإغلاق وعادت، وقفت في منتصف الطريق بين الباب والسرير، وتلت هذه الصلاة:

أنقذني أنقذني

إنه المساء، مساء الآلهة

احمني وكن إلى جانبي، يا إلهي

احمني يا سيدي

احمني من الغواية والشر

احمني من الموت المفاجئ

ومن هؤلاء الذين ينفثون الرذائل واللعنات

جنبني النزاع على حصة أرض

ليعم السلام حولنا

يا إلهي احفظني من غضب المحاربين

من الذي يقودني إلى الضلال

من الذي يفرح حين يجعلني أرتجف

من الذي ينتصب شعره دائماً

لأعش طويلاً أنا وروحي

يا إلهي.

في ذلك المساء انضممت إلى تهوره في صلاتها صادقاً.

وحين انتهت جاءت إلي وقالت وعيناها مليئتان بالدموع:

«عليك أن تضربني، اضربني مرات عديدة، مرات عديدة».

في التعبير العميق لهذا الوجه، وفي الجمال الكامل لهذا الجسد كنت أرى الألوهة مجسدة أمام عيني.

لتحل علي لعنة أبدية إن رفعت يدي على رائعة من روائع الطبيعة كهذه.

كانت عارية، دموعها ساكنة في مقلتيها، وبدت لي كما لو كانت ملتفة بعباءة ذهبية من الطهر.

وكررت قولها:

«عليك أن تضربني، مرات عديدة، مرات عديدة وإلا فستظل غاضباً مني لمدة طويلة، وستمرض»

قبلتها.

والآن، أحبها، أحبها بقدر ما أعجب بها وأردد كلمات بوذا:

«بالرقة عليك أن تتغلب على الغضب، وبالخير على الشر، وبالحقيقة على الكذب» كانت ليلة مقدسة، أكثر من أية ليلة أخرى، وجاء الصباح مشعاً.

جاءتنا أمها باكراً تحمل جوز الهند الطازج.

وبنظرة وجهت سؤالها إلى تهوره، كانت تعرف.

وبمهارة قالت لي:

«ذهبت تصيد البارحة، هل سار كل شيء على ما يرام؟»

أجبت:

«وآمل أن أذهب عما قريب،»

استدعيت للعودة إلى فرنسا، مشاكل عائلية اضطرتني لذلك.

الوداع أيتها الأرض المضيافة، أرض المتعة، منزل الجمال والحرية، أذهب الآن، أكبر بسنتين، ولكنني أكثر شباباً بعشرين سنة، أكثر بربرية مني حين أتيت، ومع ذلك أكثر حكمة.

نعم، لقد علم المتوحشون رجل الحضارة العريقة أشياء كثيرة، هؤلاء القوم الجهلة علموه الكثير في فن الحياة والسعادة.

وأهم من كل شيء علموني أن أعرف نفسي بشكل أفضل، تعلمت الحقيقة العميقة منهم، هل كان هذا سرك أيها العالم الغامض؟ أواه يا عالم النور الغامض، أسرع لقد أضأت روحي ونما بي حب لك وإعجاب بجمالك العريق، جمال نضارة الطبيعة الأزلي، صرت أفضل لأنني فهمت وأحببت روح الإنسان.

حين تركت رصيف الميناء، وفي اللحظة التي توجهت فيها إلى السفينة رأيت تهوره لآخر مرة، بكت أياماً عديدة، وجلست الآن حزينة منهكة، ولكن هادئة، ساقاها متدليتان عن صخرة، وقدمها القوية الصغيرة تلمس الأرض، والزهرة التي وضعتها في الصباح خلف الأذن سقطت على حضنها ذاوية، هنا وهناك أخريات مثلها، تعبات صامتات متجهمات يراقبن دون تفكير دخان السفينة التي تحملنا كلنا - عشاق يوم واحد - بعيداً إلى الأبد.

من على جسر السفينة ونحن نبتعد ببطء عن رصيف الميناء، كنا ننظر إليهن ونقرأ على شفاههن هذه الأبيات الماوورية القديمة:

إيه يا نسائم الجنوب والشرق اللطيفة

تحومين بعذوبة وتحلِّقين فوق رأسي

أسرعي إلى الجزيرة المجاورة

هناك، ستجدين في ظل شجرته المفضلة

ذلك الذي هجرني

قولي له إنك رأيتني أبكي.

بول غوغان

١٨٤٨ – ولد بول غوغان في باريس في السابع من حزيران.

١٨٤٩ – تركت عائلته فرنسا متوجهة إلى البيرو، توفي والده أثناء الرحلة في البحر.

١٨٥٥ –١٨٦١ – عادت العائلة إلى فرنسا بعد قضاء خمس سنوات في ليما، وأقامت في أورليانز مدينة مسقط رأس والده، درس في كلية صغيرة.

١٨٦١ –١٨٦٥ – انتقل مع والدته إلى باريس، دخل الكلية للدراسة ثم انضم إلى البحرية التجارية كمبتدئ.

١٨٦٨ – ١٨٧١ – خدم في البحرية، استقر في باريس بعد انفصال الجيش عن البحرية.

١٨٧١ – ١٨٧٣ – عمل موظف بورصة في مكتب المصارف في برلين، وبدأ اهتمامه بالفن في منزل «غوستاف آروزو» الوصي على أخته وتعرف على «كاميل بيسارو» و» أميل شوفنيكير»، بدايات جهوده كهاو لفن التصوير.

١٨٧٣ – ١٨٧٥ – تزوج «صوفي غاد» دانماركية من «كوبنهاغن»، بدأ يحضر جلسات العمل في مرسم «مولاروسي» وحصل على مجموعة من لوحات الفنانين الانطباعيين .

١٨٧٦ – أول معرض في صالة عرض رسمية يتناول مناظر الطبيعة.

١٨٧٧ - بدأ بأخذ دروس على يد النحات «جول ارنست بيويو» وأنتج منحوتاته الأولى.

١٨٨٠ - اشترك في المعرض الخامس للانطباعيين (سبع تصاوير وتمثال نصفي من الرخام).

١٨٨١ - ساهم في المعرض السادس للانطباعيين (٨تصاوير ومنحوتتان) أمضى إجازة الصيف في «بونتواز» مع «بيسارو» الذي عرفه على «سيزان» .

١٨٨٢ - اشترك في المعرض السابع للانطباعيين (١٢ لوحة زيتية وباستيل، منحوتة واحدة) .

١٨٨٣ - استقال من عمله وكرس نفسه للفن كلية، أمضى إجازة في «اونسي» مع «بيسارو» للقيام ببعض الدراسات.

١٨٨٤ - ١٨٨٥ انتقل مع عائلته إلى «بونين «ثم إلى «كوبنهاغن» حيث عرض عدداً من اللوحات والمنحوتات الخشبية، أبدى اهتمامه بالنظريات الرمزية وأقام عرضاً في جمعية أصدقاء الفن في «كوبنهاغن»، ترك زوجته وأربعة أطفال في العاصمة الدانماركية كونبهاغن وعاد إلى باريس مع ابنه «كلوفيس» البالغ ست سنوات من العمر، توجه إلى لندن وأقام فيها ثلاثة أسابيع استقر بعدها في «دييب» حيث تصادق مع «ادغار ديغا» .

١٨٨٦ - عاش متنقلاً بين «بون أفن» وباريس، عمل بالخزف في مشغل ارنست «شابليه» اشترك في المعرض الثامن للانطباعيين وعرض ١٩ لوحة.

١٨٨٧ - ذهب إلى باناما في شهر نيسان بصحبة شارل «لافال» ثم إلى «المارتينيك»، عاد إلى باريس في تشرين الثاني حيث قابل «فان كوخ» .

نظم أول معرض لأعماله في «فالادون» وفي «بوسو» وتضمن المعرض أعمال الخزف ولوحات بريتاني والمارتينيك، تعرف على «دانيال مونفرد» .

١٨٨٨ - استقر في «بون آفن» أنتج أعمالاً بأسلوبه التركيبي الجديد، أعطى دروساً في الرسم الترطيبي «لبول سوروزييه»، أقام من تشرين الأول وحتى كانون أول في آرل مع فان كوخ حيث رسم «مقهى في اليسكامب» و»عجائز آرل» وأعمالاً أخرى.

١٨٨٩ - ١٨٩٠ - أقام مع أصدقائه في مقهى «فولبيي» كمجموعة من الانطباعيين قدم ١٧ عملاً وعدداً من أعمال الحفر على المعدن تنقل ما بين باريس وبون - أفن «وبولدو» في بريتاني رسم رسماً شخصياً لـ «ماير دوهان» ولوحة «المسيح الأصفر»، «وأنجيل الجميلة» و«عائلة شوفنكير»، وحفر الشريط الخشبي» كوني عاشقة فتكوني سعيدة» كتب مقالين لمجلة «الحداثة» التقى بـ «البرت اوربيه» و«شارل موريس» شارك جماعة الرمزية اجتماعاتهم في مقهى فولتير.

١٨٩١ - ٢٣ - شباط باع بالمزاد ٣٠ لوحة في فندق دورو وتوجه إلى تاهيتي في الرابع من نيسان.

١٨٩١ - ١٨٩٣ - الفترة التاهيتية الأولى، استقر أولاً في» بابيتي» ثم في «ماتايا»، أنتج خلال هذه السنوات أكثر من ستين لوحة، أرسل عدداً منها إلى معرضين في كوبنهاغن الاول في آذار(١٨٩٢ ١٣ لوحة) والثاني في آذار من عام ١٨٩٣ في جمعية الفن الحر (حوالي ١٥ عملاً).

١٨٩٣ - عاد إلى فرنسا في ٣٠ آب، نظم عرضاً لأعماله في تشرين الثاني في صالة «دوران رويل» (منحوتتان و٤٤ لوحة منها منظر طبيعي مع ديك حبش، سهول تاهيتية، اسمها فايروماتي، ماذا هل

تغارين؟، في سفح جبل) كتب «نوا نوا» وأعد مجموعة من الرسومات للكتاب.

١٨٩٤ – اشترك في معرض «الجماليات الحرة» في بروكسل في كانون الثاني وشباط زار عائلته في كوبنهاغن، وعاش متنقلاً بين باريس وبريتاني.

١٨٩٥ – ١٨ شباط بيعت بعض أعماله في فندق دروو (٤٩ لوحة وبعض الرسومات) ٣ تموز أبحر إلى تاهيتي تاركاً فرنسا إلى الأبد.

١٨٩٥ – ١٩٠١ – الفترة التاهيتية الثانية يصل نتاج هذه الفترة إلى أكثر من ستين لوحة، عدة رسومات وتصاوير بالألوان المائية، منحوتات وأعمال حفر خشبية، أعاد كتابة « نوا نوا» وكتب سلسلة مقالات نقدية لاذعة حول الكنيسة الكاثوليكية.

١٨٩٧ – اشترك مع مجموعة (الجماليات الحرة) في بروكسل، وصله نبأ وفاة ابنته آلين.

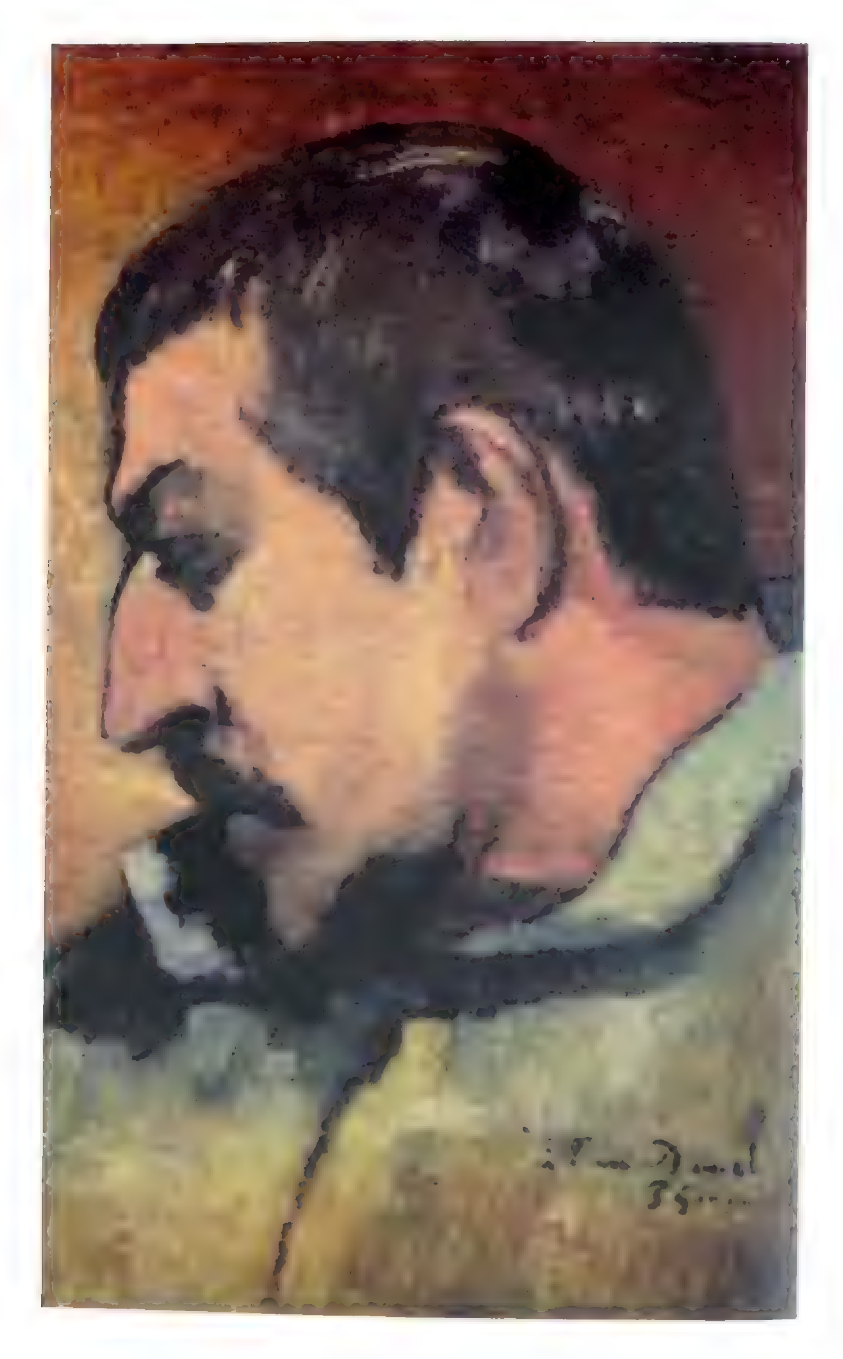
١٨٩٨ – أصيب بآلام جسدية ويأس وصل إلى حده الأقصى، ١١ شباط محاولة انتحار «رسم لوحته» من أين تأتي بدأ» يعاني من فقر مدقع، قبل بوظيفة رسام وناسخ في الصحيفة الرسمية في مكتب الأعمال العامة في «بابيتي».

١٨٩٩ – ١٩٠٠ – ساهم بمقالات للصحيفة المحلية (الدبور) حرر العدد الأول من مجلته الدورية الساخرة (الابتسامة)، رسم لوحة «أمومة» بشكلين و«ثلاث نساء تاهيتيات أمام خلفية صفراء»، «وبوذا العظيم»، ولادة ابنه اميل الذي أصبح فيما بعد فنانا.

١٩٠١ – انتقل إلى «اتونا» على جزيرة «هيفاوا» أو «الدومينيكا» في مجموعة جزر «الماركيزاس» اختبر دفقاً جديداً من النشاط الخلاق ورسم: «أجسادهن ذهب»، «طبيعة صامته مع دوار الشمس «وعدة مناظر طبيعية.

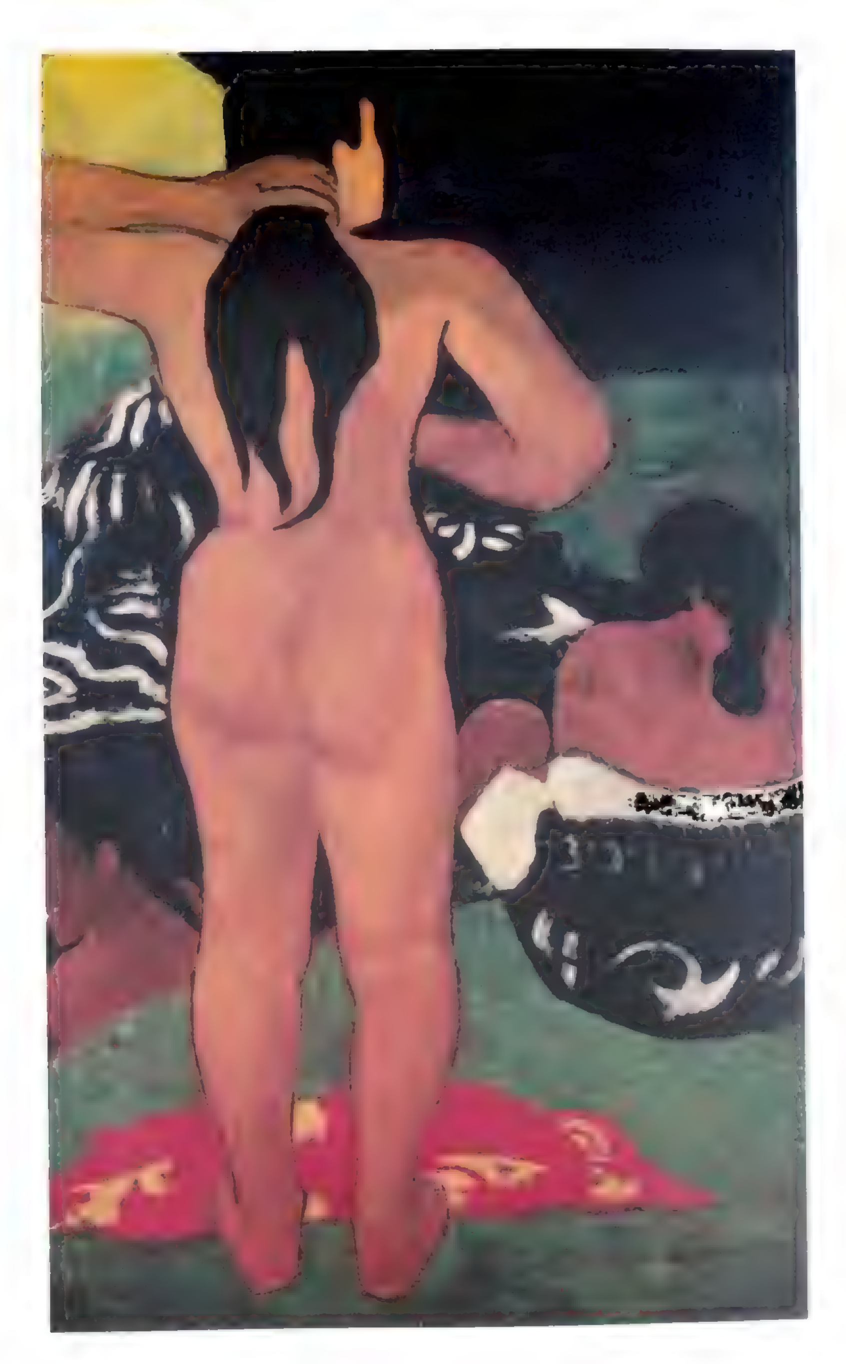
١٩٠٣ - كتب «شائعات رايـان»، ورسم «فتاة مع مروحة»، مجموعة «طبيعة صامته مع ببغاء» و«طبيعة وفرسان على الشاطئ» .

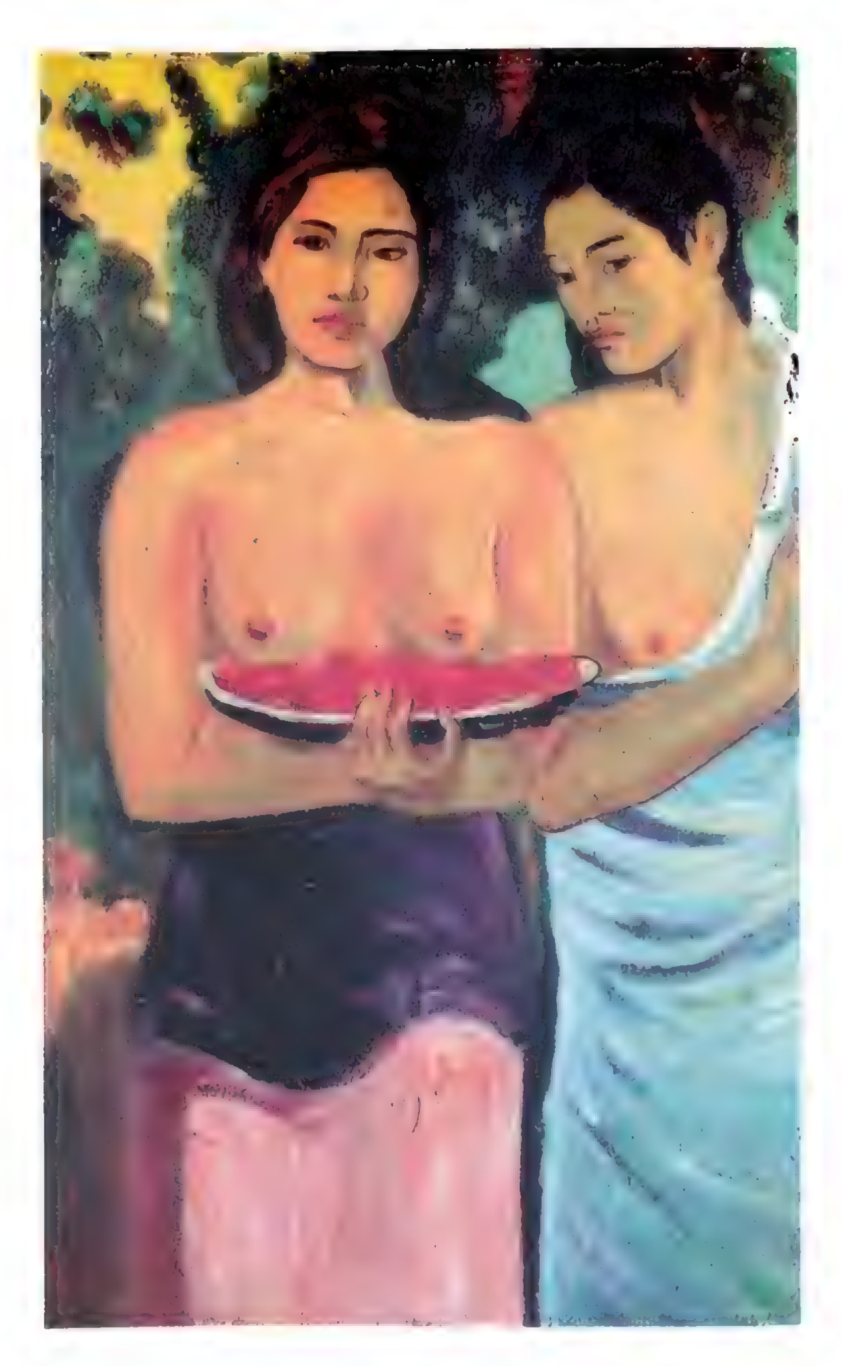
١٩٠٣ - عمل على إنهاء مذكراته (قبل وبعد) حكم عليه بغرامة وسجن لمدة ثلاثة أشهر بسبب معارضة السلطات الفرنسية واحتجاجه على معاملة السكان المحليين الفاضحة، منعه مرضه من الذهاب إلى تاهيتي للاعتراض على الحكم، ٨ أيار وقبل شهر من عيد ميلاده الخامس والخمسين مات غوغان ودفن في مقبرة صغيرة قرب «اتوانا» .







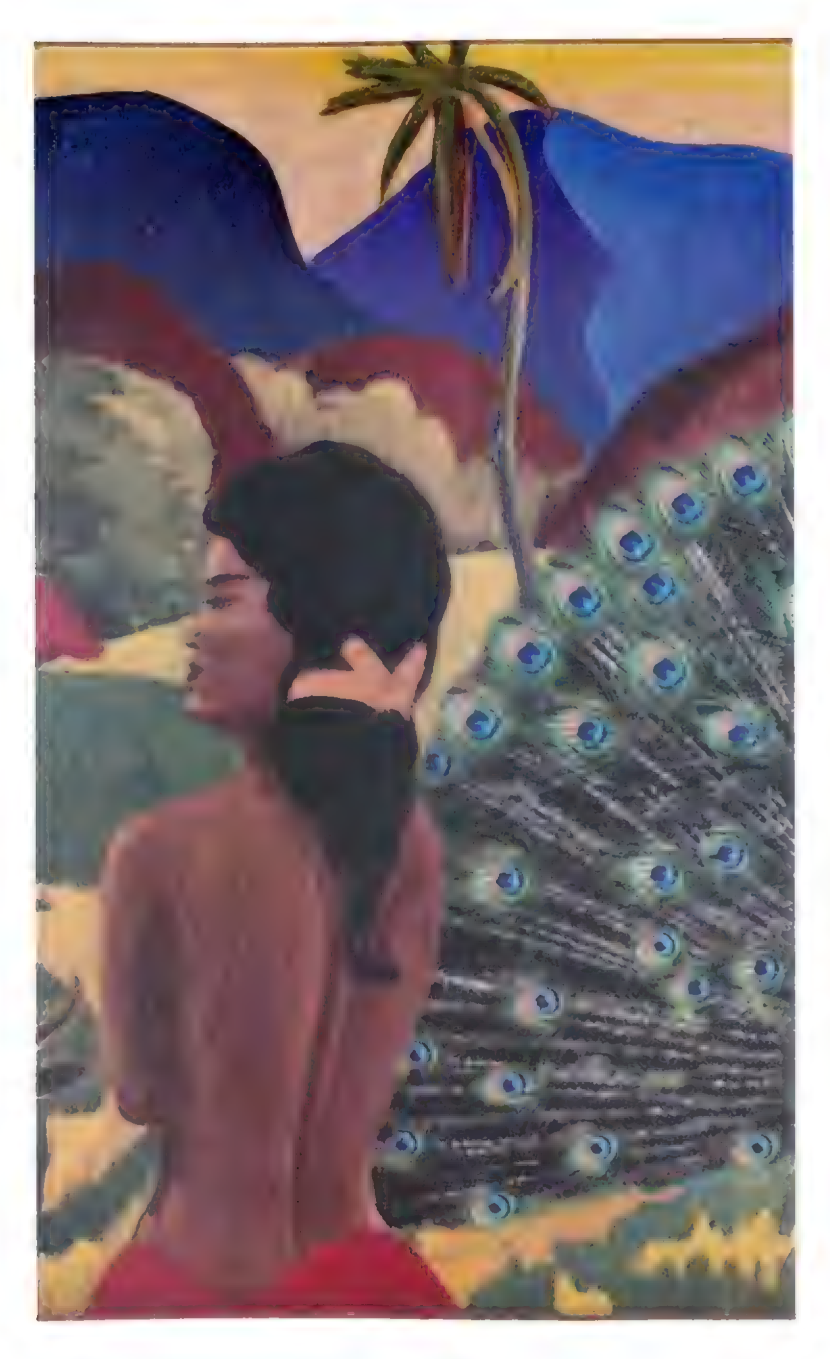




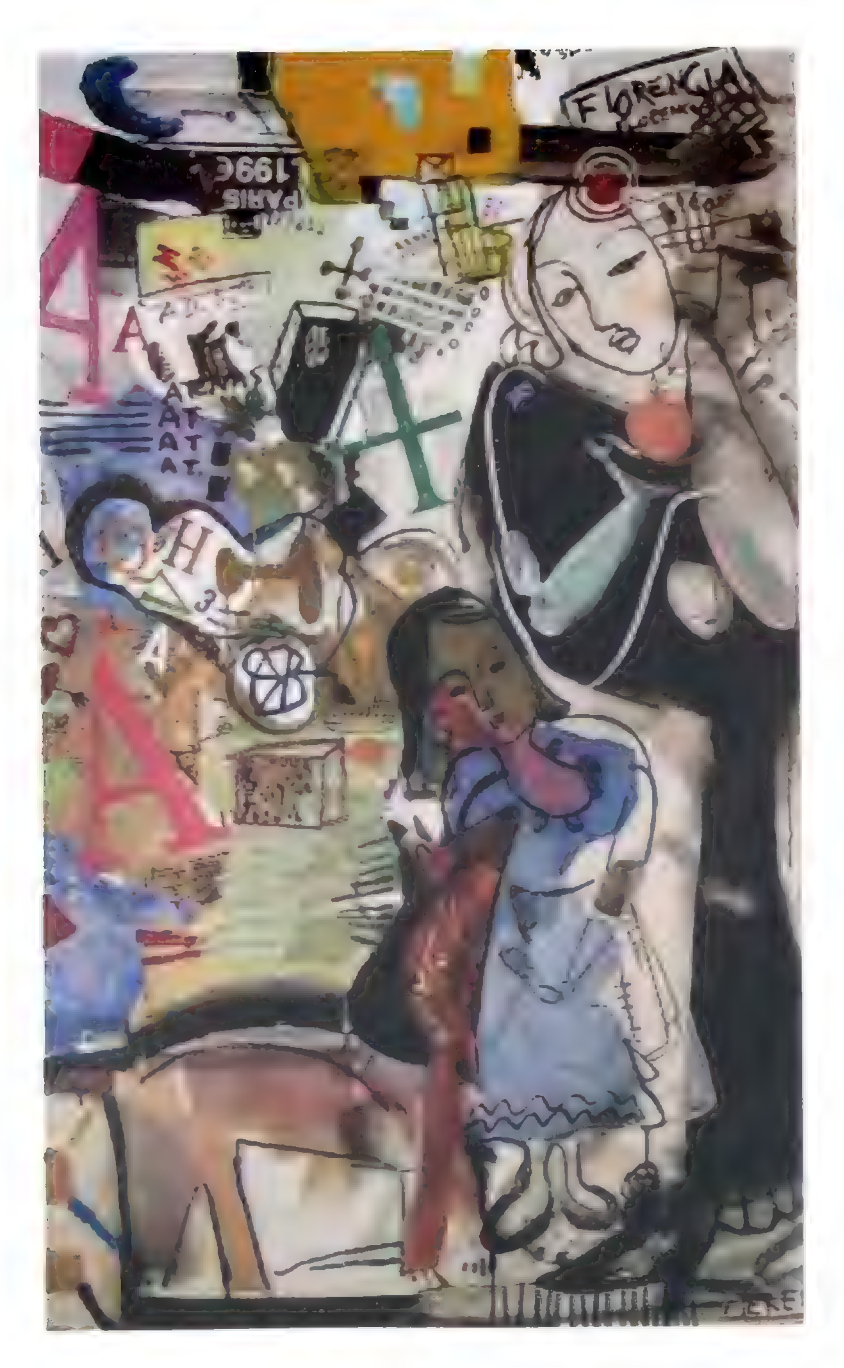



Vahine no te Tiare

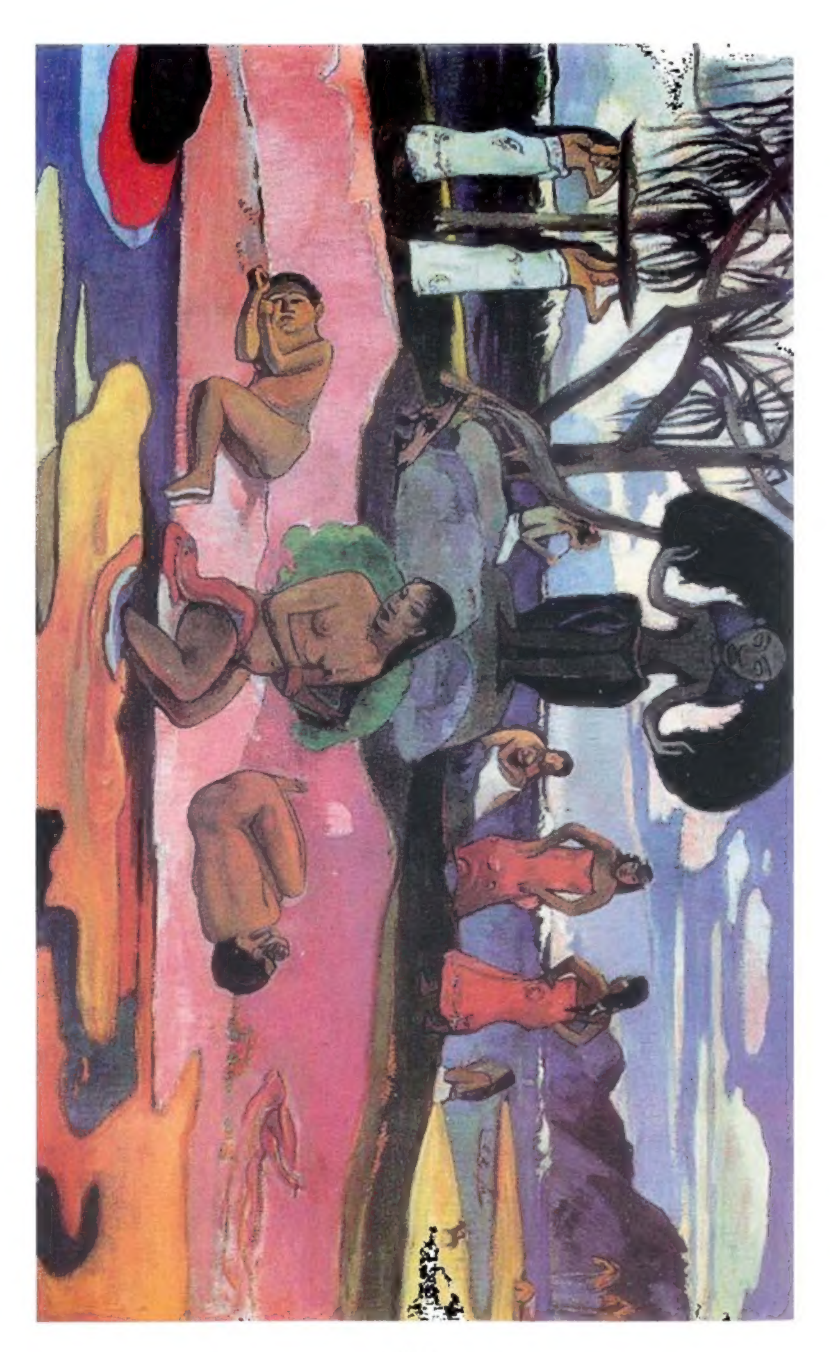














بدأت العمل فوراً، دون تردد، بحرارة وحماسة شديدين، كنت مدركاً بأن سيطرتي عليها كموديل تعتمد على مهارتي كمصور، تماماً كما كنت مدركاً بأن الموضوع بالنسبة إليها هو بمثابة دعوة مغرية لا تقاوم.

لم تكن حسناء حسب مفاهيمنا الجمالية التقليدية.

ولكنها كانت جميلة للغاية.

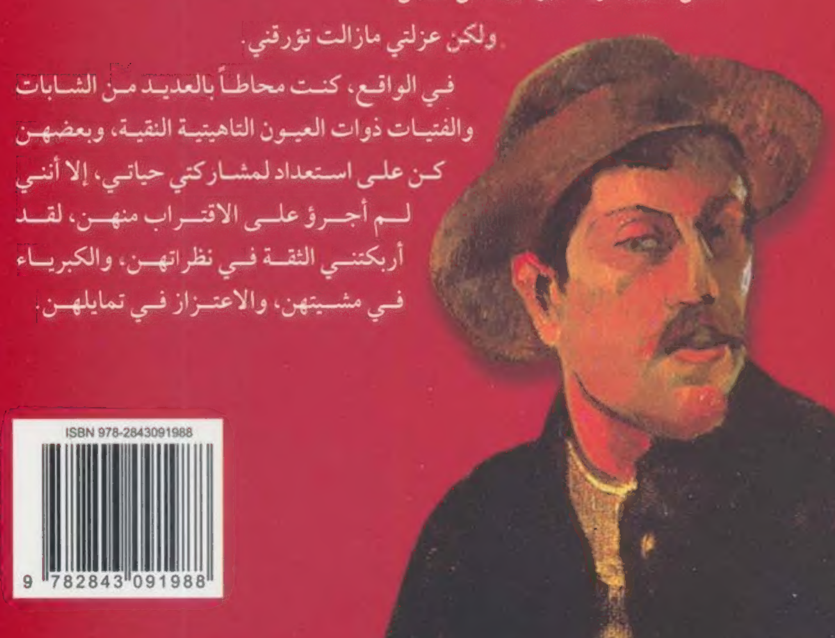
تمتزج خطوطها وانحناءاتها بانسجام رفائيلي، فمها صنعه نحات ماهر عرف كيف يرسمه في خط واحد متحرك يختلط فيه الفرح كله مع العذاب كله.

عملت بسرعة وهوس فقد كنت مدركاً بأن إذعانها لم يكن كلياً، ارتعشت وأنا أقرأ في تلك العينين الواسعتين الخوف والرغبة في معرفة المجهول، حزن التجربة المرّة الذي يكمن في جذور كل متعة، الشعور العفوي المكتمل بكونها سيدة نفسها، مثل هذه المخلوقات توهمنا بأنها تخضع لنا حين تمنح نفسها، ولكنها في الواقع تخضع لنفسها فقط، تكمن فيها قوة تفوق قوة البشر العادية- فيها شيء حيواني مقدس.

أعمل الآن بحرية أكبر، وبشكل أفضل.

ولكن عزلتي مازالت تؤرقني.

في الواقع، كنت محاطاً بالعديد من الشابات والفتيات ذوات العيون التاهيتية النقية، وبعضهن كن على استعداد لمشاركتي حياتي، إلا أنني لم أجرؤ على الاقتراب منهن، لقد أربكتني الثقة في نظراتهن، والكبرياء في مشيتهن، والاعتزاز في تمايلهن.



ISBN 978-2843091988

9 782843 091988